الاسْتِلْزَامُ الْحِوَارِيُّ فِي خِطَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيم " دِرَاسَةٌ تَدَاوُلِيَّةٌ "

بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الدولي الخامس

(مراعاة المقام وأبعاده التداولية في الفكر العربي والإسلامي)

المنعقد في ١٨ مارس ٢٠٢٣م

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية

جامعة الأزهر

إعداد الدكتور

رمزي السيد سيد أحمد حجازي

أستاذ الأدب والنقد المساعد في كلية العلوم والآداب بطبرجل

جامعة الجوف بالمملكة العربية السعودية

أستاذ الأدب والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

جامعة الأزهر الشريف

"الِاسْتِلْزَامُ الْحِوَارِيُّ فِي خِطَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ " دِرَاسَةٌ تَدَاوُلِيَّةٌ"

رمزي السيد سيد أحمد حجازي
قسم الأدب والنقد ، كلية العلوم والآداب بطبرجل ، جامعة الجوف ، المملكة العربية السعودية
وكلية اللغة العربية ، بإيتاي البارود ، جامعة الأزهر، مصر
البريد الإلكتروني: Ramzyhegazy.2034@azhar.edu.eg

الملخص:
يتناول هذا البحث ظاهرة الاستلزام الحواري في القرآن الكريم من خلال دراسة خطاب أهل الجنة والنار، للوقوف على المعاني المستلزمة التي دلت عليها عملية التواصل وفق أسس النظرية التداولية التي تعنى بدراسة النص اللغوي أثناء الاستعمال، فتراعي السياق والمقام للبحث عن قصدية المتكلم وأغراض كلامه التداولية، مع الاعتماد على آراء المفسرين في الكشف عن هذه الأغراض والمعاني المستلزمة التي ألمحوا إليها بالنظر إلى السياق القرآني.
وقد تضمن هذا البحث دراسة تداولية في الآيات القرآنية التي اشتملت على حوارات أهل الجنة والنار في النص القرآني، وكانت الغاية من دراسة هذا الفرع من فروع التداولية وهو الاستلزام الحواري إتاحة البحث عن المعنى التواصلي الذي يحتاج إلى التنقيب والتفتيش في قصدية المتكلم؛ لكونه غير متاح في الألفاظ والكلمات وحدها، وإنما يحتاج إلى نظرة شمولية للسياق والإطار العام الذي تم فيه الحوار، وعرف العلماء العرب التداولية وطبقوها في بحوثهم ودراساتهم واهتموا بكثير من المباحث التي تعد من صميم هذه النظرية، ولم يكن هذا الاهتمام خاصا بالنحويين والبلاغيين فحسب، بل اهتم بها كذلك الفقهاء وعلماء المنطق والفلاسفة.

الكلمات المفتاحية: الاستلزام الحواري، التداولية، جرايس، التعاون، التأدب، الحوار.

Conversational Imperative in the People's Speech of the Paradise and the Hell according to the Holy Quran - a deliberative study

Ramzi El- Sayed Ahmed Hijazi
Department of Literature and Criticism, Faculty of Sciences and Arts, Tabarjeel, Al-Jawf University, Saudi Arabia
Faculty of Arabic Language, Itay El-Baroud, Al-Azhar University, Egypt
E-mail: Ramzyhegazy.2034@azhar.edu.eg

Abstract:
This research addresses the phenomenon of conversational imperative in the Holy Quran by studying the discourse of the people of Paradise and Hell. This aims to identify the necessary meanings of the communication process in terms of the principles of deliberative theory dealing with the study of language text through practice. Taking into consideration the intent and purpose of speaking through relying on the interpreters' views in disclosing these purposes and the necessary meanings they erased in view of the Quranic context. This research includes a deliberative study of the verses about the people of Paradise and Hell dialogues in the Quranic text. The purpose of the study is to examine this section of the deliberation, conversational imperative, to provide a search for the communicative meaning that needed to be explored and searched in the speaker's intention because it is not available just in words and expressions; it needs a holistic view of the context and general framework through the dialogue. Arab scholars have defined the deliberative as they have applied it in their researches and studies, and have paid attention to searching about many sections that are at the main point of this theory and this interest is not just in grammatical and rhetoric one, but jurists, logical scientists, and philosophers also care about it.

Keywords: Conversational Imperative, Deliberation, Cooperation, Politeness, Conversation.

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعدَه، سيدِنا محمد، وعلى آله وصحبِه.

وبعد،،

فإن نظرية الاستلزام الحواري تعد أهم النظريات التداولية التي أسهمت في ثراء الدرس الأدبي والبلاغي في العصر الحديث، وكان لـ (بول جرايس) الفضل الأول في وضع أسس ومبادئ هذه النظرية بجهوده التي لفتت أنظار الباحثين إلى التداولية وحقولها المعرفية، وأفرزت مبدأً عاما للحوار وهو مبدأ التعاون الذي يترتب عليه ضرورة أن يتعاون المتحاورون من أجل الوصول إلى تحقيق أهداف الحوار، بالتزام عدد معين من القواعد الضرورية أثناء عملية التواصل، وقد كشف بحثُه عن أن عدم الالتزام بهذه القواعد يعد خروجا عن الأصل، يلزم منه استصحاب السياق والبحث عن قصدية المتكلم والمعاني التواصلية التي يلمح إليها السياق، والاستلزامات المقامية التي تولدت عن هذا الخروج، وهو ما يسمى بالاستلزام الحواري.

ولما كان الحوار أساسَ العملية التواصلية في الخطاب، وكان مناطَ اهتمامِ (جرايس) والباحثين في هذه النظرية، واستطاعوا أن يكشفوا عن الاستلزام الحواري الذي صارت غايتُه المعانيَ التواصليةَ لا المعانيَ الحرفيةَ للنص؛ فقد جاءت هذه الدراسة لتتناول موضوع "الِاسْتِلْزَامُ الْحِوَارِيُّ فِي خِطَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ" بهدف الوقوف على ظاهرة الاستلزام الحواري في النص القرآني حينما يتم تجاوز قاعدة من القواعد التي يتشكل منها مبدأ التعاون وهي: الكم والكيف والمناسبة والأسلوب، التي تعد أسس انسجام الحوار لإتمام عملية التواصل وتحقيق الهدف من الحوار بين المرسل والمستقبل، والاستفادة من معطيات هذا الفرع من فروع التداولية في دراسة القرآن الكريم طالما كان قابلا لذلك، وأمكن توظيف هذه النظرية في خدمة القرآن الكريم وجلاء بلاغته ومراعاة

مقامات خطابه التداولية.

وتوجد دراسات نظرية كثيرة في التداولية، لعل أهمها:

- إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي ظافر الشهري، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد، بيروت ٢٠٠٤م.
- التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، د/ مسعود صحراوي، دار الطليعة- بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.
- التداولية في الفكر العربي، رشا مسلم يعقوب، انجيرس طعمة المالكي، مجلة الخليج العربي، المجلد (٤٩)، العدد الثاني ٢٠٢١م.

كما توجد دراسات كثيرة حاولتْ استجلاء ظاهرة الاستلزام الحواري نظريا؛ وبعضها يأخذ المنحى التطبيقي في القرآن الكريم أو السنة النبوية أو النصوص الأدبية؛ منها:

- الاستلزام الحواري في التداول اللساني من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها: العياشي أدراوي، دار الأمان، المغرب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ١٤٣٢ هـ/ ٢٠١١م.
- الاستلزام الحواري من خلال خطابات سيدنا إبراهيم عليه السلام دراسة تداولية، كوثر حمو، ماجستير، جامعة قاصدي مرباح – ورقلة- الجزائر ٢٠١٦/ ٢٠١٧م.
- ظاهرة الاستلزام الحواري في جواب الاستفهام في الحديث النبوي أنموذجا: دراسة نظرية تطبيقية ضمن المنهج التداولي، عصام محمد ناصر العصام: ٨٧، جمعية الثقافة من أجل التنمية، س ١٣، العدد (٦٠) ٢٠١٢م.

وقد حاولت حصر النصوص القرآنية الواردة في إطار موضوع البحث، والتي تجلى فيها الاستلزام الحواري والغرض من العدول عن قواعد جرايس/ قواعد مبدأ التعاون، واعتمدت المنهج التداولي الذي يهتم بجانبي الوصف والتحليل للنماذج

محل الدراسة، وتتبعِ المعاني المستلزمة التواصلية في الحوار من خلال السياقات والمقامات القرآنية، وابتعدت في الدراسة التطبيقية عن ترداد المصطلح النقدي عند (جرايس) الذي استخدمه في وصف تجاوز قواعده، حيث استخدم لفظ انتهاك أو خرق، وذلك تأدبا مع القرآن الكريم وتنزيها له عما لا يليق بقداسته، حيث استبدلت به لفظ العدول.

أما عن خطة البحث؛ فإنه يتكون من مقدمة ومدخل وثلاثة مباحث وخاتمة وفهرسين.

يأتي المدخل بعد المقدمة بعنوان: "مفهوم التداولية".

ويأتي المبحث الأول بعنوان: "الاستلزام الحواري: الماهية والخصائص".

ويأتي المبحث الثاني بعنوان: "تجليات الاستلزام الحواري في خطاب أهل الجنة والنار".

ويأتي المبحث الثالث بعنوان: "دراسة إحصائية"، يلي ذلك خاتمة متضمنة أهم نتائج البحث وفهرسان للمصادر والمراجع والموضوعات.

مدخل: مفهوم التداولية:

التداولية في اللغة مأخوذة من (دَوَلَ)، ويقول ابن فارس: "الدَّالُ وَالْوَاوُ وَاللَّامُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى تَحَوُّلِ شَيْءٍ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَالْآخَرُ يَدُلُّ عَلَى ضَعْفٍ وَاسْتِرْخَاءٍ.

أَمَّا الْأَوَّلُ فَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: انْدَالَ الْقَوْمُ، إِذَا تَحَوَّلُوا مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ تَدَاوَلَ الْقَوْمُ الشَّيْءَ بَيْنَهُمْ: إِذَا صَارَ مِنْ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ، وَالدَّوْلَةُ وَالدُّولَةُ لُغَتَانِ، وَيُقَالُ بَلِ الدُّولَةُ فِي الْمَالِ وَالدَّوْلَةُ فِي الْحَرْبِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَا بِذَلِكَ مِنْ قِيَاسِ الْبَابِ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ يَتَدَاوَلُونَهُ، فَيَتَحَوَّلُ مِنْ هَذَا إِلَى ذَاكَ، وَمِنْ ذَاكَ إِلَى هَذَا"(١).

وهذا يعني أن من معاني هذا اللفظ تداول الشيء وتناقله وتحوله، وقد جاء هذا اللفظ في القرآن الكريم بهذا المعنى؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (٢)، أي: "نصرفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى"(٣)، وفي قوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْۚ ﴾ (٤)، أي كيلا يكون المال متداولاً بين الأغنياء الأقوياء ولا يناله الضعفاء والفقراء(٥)، وهذه المعاني قريبة من المعنى الاصطلاحي الحديث الذي يعني تناقل المعنى بين الناس وجريانه على ألسنتهم؛ فهناك من يعرفها بأنها "دراسة اللغة في سياقاتها الواقعية، لا في

---

(١) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس: ٣١٤/٢، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٠.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، أبو سعيد الشيرازي البيضاوي: ٤٠/٢، تحقيق/ محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

(٤) سورة الحشر: ٧.

(٥) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر الجزائري: ٣٠٥/٥، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

حدودها المعجمية، أو تراكيبها النحوية، هي دراسة الكلمات والعبارات والجمل كما نستعملها ونفهمها ونقصد بها، في ظروف ومواقف معينة، لا كما نجدها في القواميس والمعاجم، ولا كما تقترح كتب النحو التقليدية.."[١].

ويعود مصطلح (التداولية) بالمعنى الحديث إلى الفيلسوف الأمريكي (تشارلز موريس)، وعرفها على أنها جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات؛ فهي تُعنى بدراسة استعمال اللغة في الخطاب شاهدة في ذلك على مقدرتها الخِطابية[٢].

وأوجز التعريفات للتداولية وأقربها للقبول أنها: دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل؛ لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئا متأصلا في الكلمات وحدها ولا يرتبط بالمتكلم وحده ولا السامع، فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادي، واجتماعي، ولغوي) وصولا إلى المعنى الكامن في كلام ما[٣]، والتداولية في صيغتها الصرفية تدل على التفاعل والمشاركة بين طرفين.

وقد تعددت المصطلحات والترجمات التي تحيل إلى مفهوم التداولية ومن بين هذه الترجمات: (التداولية، والمقامية، والوظيفية، والسياقية، والذرائعية، والنفعية، وعلم التخاطب، وغير ذلك)، وبين هذه المصطلحات والترجمات في الواقع فروق لا تسمح باستعمالها مترادفة لتكون مقابلة للمصطلح الأجنبي

(١) تبسيط التداولية من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، بهاء الدين محمد يزيد: ١٨، شمس للنشر والتوزيع- القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

(٢) المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية، نعمان بوقرة: ٩٧، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.

(٣) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر محمود أحمد نحلة: ١٤، دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٢م.

(Pragmatics) لكن مصطلح التداولية هو الذي صار مهيمنا على استعمالات الدارسين(١).

التداولية في التراث العربي:

بالرغم مما حققته التداولية من نجاحات في البحث اللساني الحديث، إلا أنه لا يمكن إنكار دور العلماء العرب القدماء، إذ إن إسهاماتهم الواضحة في الدراسات الإنسانية تشير إلى كثير من الموضوعات التداولية، إذ نجد موضوعاتها مبثوثة في جهود العلماء العرب، وخاصة ما أثاره النص الديني من اهتمام بمقاصد المتكم وأهمية السياقات التي نشأ فيها النص سواء أكانت تتعلق بالمقامات الخارجية أم النص الداخلي، الأمر الذي نجد فيه تعاطي كثير من علماء اللغة والنحو والبلاغة والأصول والفقه وغيرها مع كلام المتكلم وما يحيل إليه من مقاصد وما استعمله على وفق سياقات معينة كان نصب اهتمامهم، فالخبر والإنشاء نجد الحديث عنهما عند النحويين والبلاغيين والأصوليين، مما يكشف عن وعي تداولي واضح(٢)، فالخطيب القزويني مثلا يقول في تعريف الاستفهام: "الاستفهام أحد أنواع الطلب استفعال، فهو طلب الفهم، وقد يخرج عن ذلك لتقرير أو غيره"(٣)، وتعد مقول: "لكل مقام مقال" المعروفة في التراث العربي ذات بعد تداولي كبير، ذلك أنّ التّداولية تهتم بذلك الخيط العلائقيّ الذي يجمع

(١) ينظر: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلها في الدرس العربي القديم: د. خليفة بوجادي: ٦٥، الطبعة الأولى، بيت الحكمة، الجزائر، ٢٠٠٩م.

(٢) ينظر: التداولية في الفكر العربي، رشا مسلم يعقوب، انجيرس طعمة المالكي: ٩٣، مجلة الخليج العربي، المجلد (٤٩)، العدد الثاني ٢٠٢١م.

(٣) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، أبو حامد، بهاء الدين السبكي: ٤٢٣/١، تحقيق/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر- بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٣م.
الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

بنية النّص بعناصر الموقف التواصلي الذي يطلق عليه سياق النّص[١]، ومن ثم فقد عرف العلماء العرب فكرة التداولية بمفهومها الحديث إلاَّ أنهم لم يؤطروها بمصطلح ولم يؤسسوا على ذلك المصطلح نظرية علمية قائمة بذاتها كما فعل الغربيون[٢].

هذا ويكاد يتفق الباحثون على أن البحث التداولي يقوم على دراسة أربعة جوانب هي:[٣] الإشارة deixis، والافتراض السابق presupposition، والأفعال الكلامية speech acts، والاستلزام الحواري conversational implicature، وهو موضوع هذا البحث.

(١) ينظر: بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل: ٢٥، دار نوبار، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

(٢) ينظر: الاستلزام الحواري بين التراث والحداثة: صحيح ابن حبان أنموذجا، أسماء عبد الباقي محمد: ١٩٤، المصدر: مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع، العدد (٣٤) ٢٠١٩م.

(٣) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٥.

المبحث الأول: الاستلزام الحواري: الماهية والخصائص:

ذهب (جرايس) أن الاستلزام نوعان: استلزامٌ عُرفي، واستلزامٌ حواري؛ فالاستلزام العرفي قائم على ما تعارف عليه أصحاب اللغة من استلزام بعض الألفاظ دلالاتٍ بعينها لا تنفك عنها مهما اختلفت بها السياقات وتغيرت التراكيب، ومن ذلك مثلا في الإنجليزية (but) ونظيرتها في اللغة العربية (لكن) فهي هنا وهناك تستلزم دائما أن يكون ما بعدها مخالفا لما يتوقعه السامع، مثل My friend is poor, but honest. ومثل: زيد غني لكنه بخيل، وأما الاستلزام الحواري فهو متغير دائما بتغير السياقات التي يرد فيها[1].

الاستلزام الحواري يعد واحدا من أهم الجوانب أو الموضوعات التي عني بها الدرس التداولي؛ فهو ألصقها بالبحث فيه، وأبعدها عن الالتباس بمجالات الدرس الدلالي، ويرجع تأسيس هذا المصطلح ووضع قواعده وأطره إلى الفيلسوف اللغوي (جرايس) وهو من فلاسفة أكسفورد المتخصصين في دراسة اللغة الطبيعية، حيث قدم تصوره لهذا الجانب من الدرس والأسس المنهجية التي يقوم عليها في محاضراته التي دُعي إلى إلقائها في جامعة هارفارد سنة ١٩٦٧م.

لقد كانت نقطة البدء عند (جرايس) قائمة على فكرة أن الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، فجعل كل همه إيضاحَ الاختلاف بين ما يقال what is said? وما يقصد what is meant? وما يقصد هو ما يريد المتكلم أن يبلغه السامع على نحو غير مباشر اعتمادا على أن السامع قادر على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال فأراد أن يقيم معبرا بين المعنى الصريح explicit meaning والمعنى المتضمن

(١) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٣.

inexplicit meaning ومن هنا نشأت فكرة الاستلزام implicature[١].

لاحظ (جرايس) أن جمل اللغات الطبيعية في بعض المقامات تدل على معنى غير محتواها القضوي، ويتضح ذلك من خلال الحوار الآتي بين الأستاذين (أ) و (ب):

الأستاذ (أ): هل الطالب (ج) مستعد لمتابعة دراسته الجامعية في قسم الفلسفة؟

الأستاذ (ب): إن الطالب (ج): لاعب كرة ممتازة.

فإذا تأملنا الحمولة الدلالية لإجابة الأستاذ (ب) وجدنا أنها تدل على معنيين اثنين في الوقت نفسه، أحدهما حَرفي، والآخر مستلزم؛ معناها الحرفي أن الطالب (ج) من لاعبي الكرة الممتازين، ومعناها الاستلزامي أن الطالب المذكور ليس مستعدا لمتابعة دراسته في قسم الفلسفة، وهذه الظاهرة اللغوية هي التي سماها (جرايس): الاستلزام الحواري[٢].

مبدأ التعاون Principle of co-operation:

رأى (جرايس) أن من أهم المبادئ لحل مشكلة سوء التفاهم الذي ينشأ بين الناس: مبدأ التعاون، ويعد هذا المبدأ من أهم المبادئ التي تهتم به التداولية لأنه مهم في إنجاح المحادثة، أي أن المتحادثين يتعاونون لاستمرار الحديث من خلال المشاركة في الحدث الكلامي المتواصل.

وهو أن تجعل إسهامك في التخاطب بحسب الحاجة؛ أي يقع في الحال التي ينبغي أن يقع فيها، وفقا للغرض المقبول، ووفقا لاتجاه المبادلة الكلامية، ومبدأ (التعاون) يتجسد في أربع قواعد فرعية هي:

---

(١) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٢، ٣٣.

(٢) التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، د/ مسعود صحراوي: ٣٣، دار الطليعة- بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

القاعدة الأولى: قاعدة الكم (Maxim of Quantity):

وتقوم هذه القاعدة على ضرورة توفير كمية معقولة من المعلومات، وتحتوي على القاعدتين الفرعيتين: يجب أن يكون إسهامك في الحوار بالقدر المطلوب من المعلومات، ولا تقل شيئا يتجاوز هذا القدر، أي من دون أن تزيد عليه أو تنقص منه.

القاعدة الثانية: قاعدة الكيف (Maxim of Quality):

وتقوم على ضرورة أن تكون المشاركة الحوارية صادقة وحقيقية، وتندرج تحتها قاعدتان مفادهما: لا تقل ما تعتقد أنه غير صحيح، ولا تقل ما ليس لك حجة أو دليل كاف على صدقه.

القاعدة الثالثة: قاعدة المناسبة أو الملاءمة (Maxim of Relevance):

وتقوم هذا القاعدة على ضرورة أن يكون إسهامك في الحوار مناسبا وملائما، وتفسر هذا القاعدة في ضوء تلك القاعدتين: كن وثيقَ الصلة بالموضوع، واجعل كلامك ذا علاقة مناسبة بالموضوع.

القاعدة الرابعة: قاعدة الأسلوب أو الطريقة (Maxim of Manner):

وتقوم على وضوح الأسلوب وتجنب الغموض، وتفسر في ضوء القواعد الفرعية الآتية: تجنب الإبهام في التعبير، وتجنب الحشو (كن موجِزا)، ورتب كلامك (كن منظما)[1].

وتحصل عملية الاستلزام الحواري إذا خُرقت إحدى القواعد الأربع السابقة،

(١) ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني: من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها: العياشي أدراوي: ٩٩، ١٠٠، دار الأمان، المغرب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ١٤٣٢ هـ/ ٢٠١١م، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر محمود أحمد نحلة: ٣٤، والاستلزام الحواري في مسرح الحكيم: السلطان الحائر نموذجا، د/ السيد مبارك أبو زيد: ٩٦، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قناة السويس – كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد ٣٧ يونيو ٢٠٢١م، ص ٩٦.

فعملية الانتقال من المعنى الأول إلى معنى ثانٍ، أو من المعنى الصريح (الظاهر) إلى المعنى المستلزم (الخفي) عن طريق مرحلتين إحداهما: عدم مطابقة المقام يؤدي إلى خرم أحد شروط إجراء المعنى الأصلي فيمتنع إجراؤه، أما الثانية: فيتولَّد عن الإخلال بشرط المعنى الأصلي معنى آخر يناسب المقام، ويكمن الهدف من هذه القواعد في ضبط مسار الحوار الذي نصل عن طريقه إلى مقاصدنا بكل وضوح فتصبح بذلك المعاني صريحة.

وإذا انتهك المتكلم قاعدة من هذه القواعد أدرك المخاطب اليقظ ذلك، وحاول الوصول إلى هدف المتكلم من هذا الانتهاك، ومن الأمثلة التي توضح وجود الاستلزام الحواري في الخطاب:(١)

١- في حوار يجري بين أم (أ) وولدها (ب):

أ- هل اغتسلت ووضعت ثيابك في الغسالة؟

ب- اغتسلت.

في هذا الحوار خرق أو انتاك لقاعدة الكم؛ لأن الأم سألته عن أمرين، فأجاب عن واحد، وسكت عن الثاني، أي أن إجابته أقل من المطلوب، ويستلزم هذا أن تفهم الأم أنه لم يضع ثيابه في الغسالة، وأنه لم يرد أن يجيب بنعم حتى لا تشمل الإجابة شيئا لم يقم به، ولم يرد أن يواجهها بتقاعسه عن وضع ثيابه في الغسالة.

٢- في حوار بين تلميذ (أ) وأستاذ (ب) وكلاهما إنجليزي:

أ- طهران في تركيا، أليس هذا صحيحا يا أستاذ؟

ب-طبعا، ولندن في أمريكا.

في هذا الحوار انتهك الأستاذ (ب) قاعدة الكيف التي تقتضي ألا يقول إلا ما يعتقد صوابه، وألا يقول ما لا دليل عليه، وقد انتهكها الأستاذ عمدا ليظهر

(١) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٦، ٣٧، ٣٨.

للتلميذ أن إجابته غير صحيحة، ويؤنبه على جهله بشيء كهذا، والتلميذ قادر على الوصول إلى مراد الأستاذ؛ لأنه يعلم أن لندن ليست في أمريكا، وذلك يستلزم أن الأستاذ يقصد بقوله شيئا غير ما تقوله كلماته، وهو أن قول التلميذ غير صحيح.

٣- في حوار بين رجلين:

أ- أين زيد؟

ب-ثمة سيارة صفراء تقف أمام منزل عمرو.

ما قاله (ب) بمعناه الحرفي ليس إجابة عن السؤال، فهو ينتهك قاعدة العلاقة المناسبة بالموضوع، ولكن السامع في ضوء القواعد الأخرى للتعاون يسأل نفسه: ما هي العلاقة الممكنة بين وقوف سيارة صفراء أمام منزل عمرو وسؤالي عن مكان زيد، ثم يصل إلى أن المراد بهذا القول إبلاغه رسالة مؤداها أنه إذا كانت لزيد سيارة صفراء فلعله عند عمرو.

٤- في حوار بين رجلين:

أ- ماذا تريد؟

ب- قم، واتجه إلى الباب، وضع المفتاح في القفل، ثم أدره ناحية اليسار ثلاث مرات، ثم ادفع الباب برفق.

وواضح أن فيما قاله (ب) انتهاكاً لمبدأ من مبادئ قاعدة الطريقة manner وهو "أوجِز" إذ كان يكفي أن يقال: افتح الباب، وإذا نظرنا إلى هذا القول في ضوء تحقق مبادئ الحوار الأخرى كان لابد أن المتكلم يحاول به وجها غير ما يظهر، قد يكون مؤاخذته على ما يتميز به بين بطء وتكاسل.

على أن انتهاك مبادئ الحوار لا يقتصر على التعبير الحقيقي، بل يشمل المجازي أيضا، وهو متحقق أيضاً في كل مفارقة irony يراد بها عكس ما يقال، أو غير ما يتوقع.

وانتهاك قواعد الاستلزام الحواري يعمل على توسيع المعنى، وثراء

المضامين، وقوة الرسالة الموجهة للمخاطب، والكلام الذي يلتزم فيه المتكلم بهذه القواعد هو كلام يخلو من الاستلزام الحواري؛ فقد يراعي المتكلم القواعد والحِكم بشكل صريح إلى حد ما، تاركا للمخاطب مهمة توسيع وتظهير ما قيل باللجوء إلى استدلالات مباشرة انطلاقا من مراعاة المتكلم للقواعد، ويسمي هذا الاستدلال الناتج عن مراعاة القواعد باسم **الاستلزام النموذجي** (Standard implicature)[١].

وأهم مميزات الاستلزام الحواري- من حيث كونُه آلية من آليات الخطاب- أنه يقدم تفسيرا صريحا لقدرة المتكلم على أن يعني أكثر مما يقول بالفعل، أي أكثر مما تؤديه العبارات المستعملة، فاستعمال جملة (ناولني الكتابَ من فضلك) على سبيل المثال المنجزة في مكان محدد، يخرج معناها من الطلب (الأمر) إلى معنى (الالتماس)، وهو ما تفيده القرينة (من فضلك)[٢].

ومن خلال الطرح السابق يتبين أن الاستلزام الحواري في الفكر البلاغي العربي هو خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، وهو ما تحدث عنه علماؤنا في كتبهم، كما عند الجاحظ والجرجاني والسكاكي وغيرهم[٣]، مما يؤكد أن التداولية لها جذورها في الفكر العربي التراثي.

مبدأ التأدب:

وهذا هو المبدأ التداولي الثاني الذي ينضبط به الحوار، وقد أولته الباحثة (روبين لايكوف) عناية واهتماما، وصياغته: لتكن مؤدبا، ويقضي بأن يلتزم المتكلم والمخاطب في تعاونهما على تحقيق الغاية التي من أجلها دخلا في

---

(١) ينظر: إستراتيجيات الخطاب: ٤٣٠.

(٢) الاستلزام الحواري في التداول اللساني: ١٩.

(٣) ينظر: ظاهرة الاستلزام الحواري في جواب الاستفهام في الحديث النبوي أنموذجا: دراسة نظرية تطبيقية ضمن المنهج التداولي، عصام محمد ناصر العصام: ٨٧، جمعية الثقافة من أجل التنمية، س ١٣، العدد (٦٠) ٢٠١٢م.

الكلام من ضوابط التهذيب ما لا يقل عما يلتزمان به من ضوابط التبليغ، ويتفرع هذا المبدأ إلى ثلاث قواعد، هي:

١- **قاعدة التعفف،** فلا تفرض نفسك على المخاطب، إذ يجب عليك أن تحافظ على المسافة بينك وبين المخاطب ولا تقحم نفسك عنوة، فعليك تجنب الأفعال المباشرة في الطلب، فضلا عن تجنب الإلحاح أو إكراه المخاطب على فعل ما تريد(١).

٢- **قاعدة التشكك (التخيير)** التي تجعل المخاطب يختار بنفسه، "وتقترح قاعدة التخيير التلفظ بأساليب دالة على تخيير المرسل إليه في اتخاذ ردة الفعل المناسبة، أو التلفظ بأساليب الشك عند المرسل، بدلا من استعمال أساليب الجزم والإلحاح، بحيث يدع للمرسل إليه حرية اتخاذ القرار، مثل: ما رأيك في تناول قدح من الشاي بدلا من: تناولْ قدحا من الشاي.

ويتبلور في هذه القاعدة الاعتراف بمكانة المرسل إليه، بوصفه طرفا في الخطاب، يتمتع بقدرات تؤهله للمشاركة في إنجاز الفعل، وتعد الملمحات الفعلية من أهم أدواتها، مثل: أعتقد(٢)، أتوقع، فقد يستعملها، بالرغم من ثقته فيما يقوله، ولكنه لا يريد إحراج المرسل إليه، وكأنه يريد أن يطمئنه بأنه لا تثريب عليه في أدواتها، كذلك، استعمال اسم الإشارة، للإحالة إلى تلك الأفعال التي لا يستحب ذكرها"(٣).

---

(١) ينظر: إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي ظافر الشهري: ١٠٠، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد، بيروت ٢٠٠٤م.

(٢) بمعناها العرفي الشائع حيث استخدمت في الدلالة على الظن، ولكن الاعتقاد في أصل معناه جزم بالرأي.

(٣) إستراتيجيات الخطاب: ١٠١، ١٠٢.

٣- **قاعدة التودد** التي تفرض إظهار الود للمخاطب(١).

وقد "ادعت (لايكوف) أن قواعد التأدب كلية في طبيعتها وعددها بحيث تأخذ بها مختلف المجتمعات البشرية كما تأخذ بها مختلف الجماعات اللغوية داخل المجتمع الواحد، أما ما نشاهده من الاختلاف في التأدب فيما بين هذه الجماعات فلا يتعلق إلا بترتيب هذه القواعد، فيفضل بعضها على بعض ويقدم العمل به على غيره عند هذه الجماعة أو تلك"(٢).

يضاف إلى ذلك أن (جوفري ليتش) وضع حشداً من قواعد التأدب صائغاً مبدأ: (التأدب الأقصي) واعتبره مكملاً لمبدأ التعاون، وله صورتان: إحداهما إيجابية، والأخري سلبية وهما:

- أكثر من الكلام المؤدب.
- قلل من الكلام غير المؤدب.

فقد أسهم كل من (لايكوف) و(ليتش) في صياغة مبدأ التأدب، وما قدمته (لايكوف) خاصة يعد إضافة تكميلية مهمة لمبدأ التعاون الذي قدمه (جرايس)، ويفيد ذلك في توسيع مبادئ الخطاب، وعدم قصره على الجانب اللفظي فقط.

ويبدو أن هذا المبدأ التأدبي الذي أوردته (لايكوف) يفضل المبدأ التعاوني الذي أورده (جرايس)، من حيث إنه يجمع بين الجانب التهذيبي والجانب التبليغي من جوانب التخاطب، وتفرعه إلى ثلاث قواعد تنظم هذا الجانب، ويفتح باب رد التبليغ إلى التهذيب، فقد ظهر أنه بالإمكان رد القواعد التعاونية إلى قاعدة التعفف المتفرعة على هذا المبدأ(٣).

---

(١) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الدكتور طه عبد الرحمن: ٢٤٠، ٢٤١، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٨م.

(٢) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الدكتور طه عبد الرحمن: ٢٤١.

(٣) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الدكتور طه عبد الرحمن: ٢٤٢.

خصائص الاستلزام الحواري:

للاستلزام الحواري عند (جرايس) خصائص تميزه عن غيره من أنواع الاستلزام الأخرى، وقد استطاع أن يضع يده على الخصائص الاتية:(١)

١- **الاستلزام يمكن إلغاؤه،** ويتم ذلك إذا عمد المتكلم إلى إضافة قول يسدّ الطريق أمام الاستلزام أو يحول دونه، فإذا قالت قارئة لكاتب مثلا: لم أقرأ كل كتبك، فقد يستلزم ذلك عنده أنها قرأت بعضها، فإذا أعقبت كلامها قولها: الحق أني لم أقرأ أي كتاب منها، فقد ألغت الاستلزام، وإمكان الإلغاء هذا هو أهم اختلاف بين المعنى الصريح والمعنى الضمني، وهو الذي يمكّن المتكلم من أن ينكر ما يستلزمه كلامه.

٢- **الاستلزام لا يقبل الانفصال عن المحتوى الدلالي،** ويقصد (جرايس) بذلك أن الاستلزام الحواري متصل بالمعنى الدلالي لما يقال، لا بالصيغة اللغوية التي قيل بها، فلا ينقطع مع استبدال مفردات أو عبارات بأخرى ترادفها.

ولعل هذه الخاصية هي التي تميز الاستلزام الحواري عن غيره من أنواع الاستدلال التداولي مثل الافتراض السابق.

ولعل ما أراد يتضح من خلال الحوار الآتي بين أختين:

أ- لا أريدك أن **تتسللي** إلى غرفتي على هذا النحو.

ب- أنا لا أتسلل ولكن **أمشي على أطراف أصابعي** خشية أن أُحدث ضوضاء.

فعلى الرغم من تغير الصياغة في قول (ب) فإن ما يستلزمه القول من عدم الرضا عن هذا السلوك لا يزال قائما.

٣- **الاستلزام متغير،** والمقصود بالتغير أن التعبير الواحد يمكن أن يؤدي إلى استلزامات مختلفة في سياقات مختلفة، فإذا سألت طفلا يحتفل بيوم ميلاده مثلا: كم عمرك؟ فهو طلب للعلم، وإذا سألت السؤال نفسه لصبي عمره

(١) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٨.

خمسة عشر عاما فقد يستلزم السؤال مؤاخذة له على نوع من السلوك لا ترضاه له، وإذا سألت السؤال نفسه لفتى يمنع من اتخاذ قرار لا يخرج عن تعاليم الدين ومواضعات الخلاق والأعراف فقد يعني ذلك انه من النضج بحيث يستطيع أن يتخذ قراره ويتحمل عواقبه.

٤- **الاستلزام يمكن تقديره**، والمراد به ان المخاطب يقوم بخطوات محسوبة يتجه بها خطوة خطوة إلى الوصول إلى ما يستلزمه الكلام، فإذا قيل مثلا: الملكة فيكتوريا صُنعت من حديد، فإن القرينة تُبعد السامع عن قبول المعنى اللفظي، فيبحث عما وراء الكلام من معنى فيقول لنفسه: المتكلم يريد ان يلقي إليّ خبرا بدليل أنه ذكر لي جملة خبرية، والمفروض في هذا المتكلم أنه ملتزم بمبدأ التعاون أي أنه لا يريد بي خداعا ولا تضليلا، فماذا يريد ان يقول؟ لا بد انه يريد ان يخلع على الملكة بعض صفات الحديد كالصلابة والمتانة وقوة التحمل، وهو يعرف انني أستطيع ان أفهم المعنى غير الحرفي فلجأ إلى هذا التعبير الاستعاري.

الاستلزام الحواري في التراث العربي:

الحقيقة أن علماءنا العرب القدامى قد تنبهوا إلى هذه الظاهرة، وإن لم يقفوا عند المحددات والمصطلحات الحديثة، لكنهم طبقوها في تناولهم للجملة العربية والخطاب العربي، ولاحظوا العلاقة بين المعنى الصريح والمعنى المستلزم، والتعبير بالخبر مع إرادة الإنشاء، وتحدثوا عن المقام أو السياق ودوره في تحديد المعنى المستلزم من الكلام، كما جاء عن "بشر بن المعتمر" في قوله: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات،

وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[١]، ويرى علماء البلاغة أن الأصل هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ولكنه قد يخرج عن هذا الأصل، وهو ما يسمى بالخروج على مقتضى الظاهر، كما يقول الهاشمي: "علمتَ أن البلاغة متوقفة على مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ورأيتَ في ما تقدم من الأحكام، أن مقتضى الحال يجري على مقتضى الظاهر وهذا بالطبع هو الأصل، ولكن قد يُعدل عمّا يقتضيه الظاهر إلى خلافه، مما تقتضيه الحال في بعض مقامات الكلام"[٢]، وهذا وغيره يؤكد أن ظاهرة الاستلزام الحواري لم تكن بعيدة عن فكر علمائنا القدامى، بل إنهم تعرضوا لها في أبواب كثيرة، وفي مجالات معرفية متعددة كالاستعارة والمجاز والكناية وغيرها، فهي قريبة جدا مما ورد في التراث اللغوي العربي عند البلاغيين وعلماء أصول الفقه[٣]، وقد عرف الدرس العربي بشكل عام عملية الملازمة بين ظاهر الكلام وباطنه، أو المنطوق والمفهوم أو غير ذلك من الإشارات إلى الكلام المضمر[٤]، وعلماء الأصول لهم باع كبير في هذا الجانب حيث تحدثوا عن دلالة الألفاظ وقسموها إلى دلالة المنطوق ودلالة المفهوم، ودلالة الاقتضاء، ودلالة الإشارة، ودلالة الإيماء والتنبيه[٥]، ومن ثم فإن التعامل مع النصوص القرآنية التي يعالجها هذا البحث سيأتي في ضوء ما عُرف عند العرب في لسانها، وما فطرت عليه من أساليب الخطاب.

---

(١) البيان والتبيين، الجاحظ: ١٣١/١، مكتبة الهلال، بيروت ١٤٢٣ هـ.

(٢) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي: ٢١٢، تحقيق/ د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية- بيروت (د.ت).

(٣) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٠.

(٤) ينظر في ذلك: التداولية في الفكر العربي: ٩٨.

(٥) ينظر: الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن الآمدي: ٣/ ٦٤: ٦٦، تحقيق/ عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق- لبنان (د.ت).

المبحث الثاني: تجليات الاستلزام الحواري في خطاب أهل الجنة والنار:

في هذا المبحث نهتم بالجانب التطبيقي الذي يوظف قواعد الاستلزام الحواري على النماذج القرآنية المتعلقة بالحوارات التي جاءت في خطاب أهل الجنة والنار في القرآن الكريم، سواء أكان ذلك بين أهل الجنة وأهل النار، أو بين أهل النار مع الله- تبارك وتعالى، أو بين أهل النار والملائكة، أو بين طائفة من أهل النار وطائفة أخرى من أهل النار كذلك.

حوار أهل الجنة مع أهل النار:

جاءت آيات قرآنية كثيرة تصور حال أهل الجنة والنار عن طريق الحوار الذي يدور بين الطرفين؛ لأن غاية القرآن الأساسية هي الوعظ والزجر ومساعدة الإنسان على التمييز بين ما ينفعه وما يضره؛ فكان الحوار بين أهل الجنة والنار من أبلغ هذه المواعظ التي تنقل صورة حية لأحوال الفريقين، وتبين ما يتمتع به أهل الجنة من النعيم والعزة، وما يتلظى فيه أهل النار من العذاب والمسكنة.

وأحيانا نجد الخطاب موجها من أهل الجنة إلى أهل النار، وأحيانا يكون العكس، ويتجلى هذا التواصل في سؤال أهل الجنة عن أهل النار لمعرفة ما حاق بهم من وعيد الله، وفي استنجاد أهل النار بأهل الجنة والطمع في شيء مما عندهم من نعيم، وتتنوع طرق الحوار وخصائصه بِناء على السياق والمقام، وتكشف النماذج الآتية عن خصائص هذا الحوار وما فيه من مقاصدَ ومعانٍ ضمنية ناتجة عن الاستلزام الحواري، حيث يوجد تجاوز لقواعد مبدأ التعاون أو التأدب.

ومن النماذج القرآنية للحوار بين أهل الجنة والنار التي يتضح فيها الاستلزام الحواري قوله- تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾[1]

(١) سورة الأعراف: ٤٤.

في هذه الآية الكريمة استلزام حواري في قول أصحاب الجنة: (قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟)، وهو قول يبنى على سؤال يتوجه من أصحاب الجنة إلى أصحاب النار، يتكون من جملتين أساسيتين: الأولى خبرية، والثانية إنشائية طلبية:

- وجدنا ما وعدنا ربنا حقا.
- هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟

فنجد الجملة الأولى تتجاوز إحدى قواعد مبدأ التعاون عند (جرايس) وهي قاعدة الكم؛ ومن ثم يكون الاستلزام الحواري، فهي إخبار يبادر به أصحاب الجنة أصحاب النار: (قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا)، فهي جملة ابتدائية لم تُطلب من أهل الجنة، ابتدروا بها أهل النار؛ لأن جوهر السؤال يكمن في الجملة الثانية: (هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟)، فكانت هذه الجملة كافية في طلب السؤال عن تحقق وعد الله، ومن ثم فإن في هذه الخطاب عدولا عن قاعدة (الكم) التي تقضي بأن يكون إسهام المتكلم في الحوار بالقدر المطلوب من المعلومات، وألا يقول شيئا يتجاوز هذا القدر، وهذا العدول يستلزم معانيَ ضمنيةً يقصدها المتكلم/ أصحاب الجنة، وهي إظهار الفرحة العارمة التي اجتاحت قلوبهم بفوزهم بالجنة، وفي الوقت ذاته تبكيت أهل النار والشماتة بحالهم؛ لأن الإجابة معلومة لديهم، محققة في نفوسهم، فما سؤالهم إلا نوعا من الشماتة بأهل النار، والدلال بما هم فيه من نعيم، قال الزمخشري: "وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم، وشماتةً بأصحاب النار، وزيادةً في غمهم، لتكون حكايته لطفاً لمن سمعها "[1]، وهذه المعاني مستلزمة عن اللفظ الصريح؛ فليس المقصود بالجملة الأولى مجرد الإخبار.

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله الزمخشري: ٢٠٦/٢، دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ.

ويبين الطاهر بن عاشور ما في هذه الجملة الخبرية من معان مستلزمة، وما تلمح إليه من مضامينَ ومقاصد، ويعدها من باب الكناية التي تجمع بين المعنى الصريح والمعنى الكنائي، حيث يقول: "وَالْخَبَرُ الَّذِي هُوَ (قَدْ وَجَدْنا مَا وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا) مُسْتَعْمَلٌ فِي لَازِمِ مَعْنَاهُ وَهُوَ الِاغْتِبَاطُ بِحَالِهِمْ، وَتَنْغِيصُ أَعْدَائِهِمْ بِعِلْمِهِمْ بِرَفَاهِيَةِ حَالِهِمْ، وَالتَّوَرُّكُ عَلَى الْأَعْدَاءِ إِذْ كَانُوا يَحْسَبُونَهُمْ قَدْ ضَلُّوا حِينَ فَارَقُوا دِينَ آبَائِهِمْ، وَأَنَّهُمْ حَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ طَيِّبَاتِ الدُّنْيَا بِالِانْكِفَافِ عَنِ الْمَعَاصِي، وَهَذِهِ مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٌ كُلُّهَا مِنْ لَوَازِمِ الْإِخْبَارِ، وَالْمَعَانِي الْكِنَائِيَّةُ لَا يَمْتَنِعُ تَعَدُّدُهَا لِأَنَّهَا تَبَعٌ لِلَّوَازِمِ الْعَقْلِيَّةِ، وَهَذِهِ الْكِنَايَةُ جُمِعَ فِيهَا بَيْنَ الْمَعْنَى الصَّرِيحِ وَالْمَعَانِي الْكِنَائِيَّةِ، وَلَكِنَّ الْمَعَانِي الْكِنَائِيَّةَ هِيَ الْمَقْصُودَةُ إِذْ لَيْسَ الْقَصْدُ أَنْ يَعْلَمَ أَهْلُ النَّارِ بِمَا حَصَلَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَلَكِنَّ الْقَصْدَ مَا يَلْزَمُ عَنْ ذَلِكَ، وَأَمَّا الْمَعَانِي الصَّرِيحَةُ فَمَدْلُولَةٌ بِالْأَصَالَةِ عِنْدَ عَدَمِ الْقَرِينَةِ الْمَانِعَةِ"[(١)].

ويدل على اغتباط أصحاب الجنة وفرحهم بما وجدوا إضافةُ ضمير الجمع (نا) إلى الكلمات: وجد- وعد- رَبّ، لتصبح: وجدْنا- وعدَنا- ربُّنا، وفي ذلك تصوير لشعورهم في هذا اليوم، كما قال الله تعالى في سورة الحاقة: "﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ ﴾[(٢)]، "وَأَتَى فِي إِخْبَارِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: (مَا وَعَدَنا) بِذِكْرِ الْمَفْعُولِ وَفِي قِصَّةِ أَهْلِ النَّارِ: (مَا وَعَدَ) وَلَمْ يَذْكُرْ مَفْعُولَ (وَعَدَ) لِأَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مُسْتَبْشِرُونَ بِحُصُولِ مَوْعُودِهِمْ، فَذَكَرُوا مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ مُضَافًا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَذْكُرُوا حِينَ سَأَلُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مُتَعَلِّقَ (وَعَدَ) بَاسِمِ الخطاب فيقولوا: ما وَعَدَ رَبُّكُمْ لِيَشْمَلَ كُلَّ مَوْعُودٍ مِنْ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ وَنَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ"[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور: ٨ب/ ١٣٥، الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤هـ.

(٢) سورة الحاقة: ١٩.

(٣) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي: ٥/ ٥٥، تحقيق/ صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت ١٤٢٠هـ.

وتأتي الجملة الثانية الطلبية في كلام أصحاب الجنة: (فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟) لتكون داعية إلى إجابة أصحاب النار، موجبة عليهم الرد، فكان ردهم كلمة واحدة هي: (نعم)، وفي ذلك التزام تام بمبدأ التعاون وقواعده الأربعة التي يتفرع إليها؛ فقد استخدم أصحاب النار في كلامهم القدرَ المطلوب من الكلمات دون زيادة (قاعدة الكم)، وكانوا صادقين (قاعدة الكيف)، وكانت إجابتهم ذات صلة وثيقة بسؤال أصحاب الجنة (قاعدة المناسبة)، وأجابوا إجابة واضحة (قاعدة الطريقة)، ولذلك لم يتولد عن قولهم أي استلزام؛ لأنهم قالوا ما يقصدون، وهذا ما يسمى الاستلزام النموذجي[1]، كما يقول الزوج لزوجته: أين مفاتيح السيارة، فتقول: على المائدة، فلم يتولد عن قولها أي استلزام، لأنها قالت ما تقصده.

والالتزام بمبدأ التعاون في جواب أصحاب النار سببه أنهم كُبتوا، وشعروا بالخزي والبهتان، فلم يستطيعوا أن يجيبوا أصحاب الجنة بأكثرَ من ذلك، فالالتزام بقواعد مبدأ التعاون جميعِها: الكم- الكيف- المناسبة- الأسلوب، فيه دلالة على قطعية الجواب والوصول إلى مرحلة اليقين بالهلاك والخسران المبين، قال أبو حيان: "وَتَكُونُ إِجَابَتُهُمْ بِنَعَمْ تَصْدِيقًا لِجَمِيعِ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِوُقُوعِهِ فِي الآخرة للصفين، وَيَكُونُ ذَلِكَ اعْتِرَافًا مِنْهُمْ بِحُصُولِ مَوْعُودِ الْمُؤْمِنِينَ، لِيَتَحَسَّرُوا عَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنَ نَعِيمِهِمْ، إِذْ نَعِيمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِمَّا يُخْزِيهِمْ وَيَزِيدُ فِي عَذَابِهِمْ"[2].

ومن النماذج التي يتحقق فيها الاسلتزام الحواري قوله- سبحانه وتعالى:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا

(١) ينظر: إستراتيجيات الخطاب: ٤٣٠.

(٢) البحر المحيط: ٥/ ٥٥.

يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (١).

ففي هاتين الآيتين الكريمتين نجد أيضا عدولا عن (قاعدة الكم) عند (جرايس) في مبدأ التعاون؛ فأصحاب النار يطلبون من أصحاب الجنة أن يُفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله، فيجيبهم أصحاب الجنة بقولهم: (إن الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا)، فأصحاب الجنة يهتبلون الفرصة للشماتة بأصحاب النار والهزء بحالهم بزيادة أوصاف أهل النار في الدنيا، وذلك في قولهم: الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا، فتجاوزوا قاعدة الكم ونتج عن ذلك استلزام حواري؛ فالقدر المطلوب من المعلومات حسب قاعدة (الكم) عند (جرايس) يتحقق بقول أصحاب الجنة: (إن الله حرمهما على الكافرين)، ولكن كما هو واضح هناك تجاوز متعمَّد لهذا القدر الضروري؛ يستلزم مقاصد أخرى غير المعنى الصريح للفظ؛ فالمعنى الصريح هو رفض أصحاب الجنة طلبَ أصحاب النار بإعطائهم شيئا من الماء أو الطعام، ولكن المعنى الضمني الذي دل عليه الحوار هو تذكير أهل النار بجرائمهم التي فعلوها في الدنيا، ولومهم على تفريطهم في حق أنفسهم، وانشغالهم باللهو واللعب عن عبادة الله، واغترارهم بالحياة الدنيا الفانية، وهو معنى يتوجه للمخاطَب بالقرآن الكريم مثلما يتوجه إلى أهل النار؛ لأن أهل النار أبصروا حقيقة أفعالهم التي استحقوها على ما عرَفوا من صفاتهم التي كانوا عليها في الدنيا، وأدركوا أن النار هي جزاؤهم العادل على تفريطهم، ولكن حاجة الإنسان إلى هذه المعاني في الدنيا بتفصيل صفات أهل النار وبيان تذللهم وهوانهم على أصحاب الجنة أشد من حاجة أصحاب النار إلى ذلك.

ومن هذه النماذج التي يظهر فيها الاستلزام الحواري قول الله- تعالى:

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟

(١) الأعراف: ٥٠،٥١.

نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾ (١)

والإجابة عليهم بعد (قيل) قد تكون من المؤمنين المخاطَبين أو من الله- تعالى- أو من الملائكة: (ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) يظهر الاستلزام الحواري، نتيجة للعدول عن قاعدة (المناسبة)، وذلك أن المؤمنين- على فرض أنهم المتكلمون- أجابوا عن طلب المنافقين بطلب آخر: (ارجعوا وراءكم...)، وليس غرضُهم من هذا الأمر حقيقتَه؛ لأن الرجوع إلى الدنيا صار مستحيلا، وهو ما يدل على وجود مقاصدَ أخرى للخطاب، والعملِ على إبلاغ رسالة خاصة للطرف الآخر/ المنافقين تتمحور حول التهكم بهم وتقنيطهم من وجود النور وتخييب آمالهم فيه، فالتماس النور يتوقف على أمر مستحيل وهو الرجوع إلى الدنيا، يقول صاحب "الكشاف": "قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورا: طردٌ لهم وتهكم بهم، أي: ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أُعطينا هذا النور فالتمسوه هنالك، فمِن ثَمَّ يُقتبس، أو ارجعوا إلى الدنيا، فالتمسوا نورا بتحصيل سببه وهو الإيمان، أو ارجعوا خائبين وتنحَّوْا عنا، فالتمسوا نورا آخر، فلا سبيل لكم إلى هذا النور، وقد علموا أن لا نور وراءهم، وإنما هو تخييب وإقناط لهم"(٢)؛ فالأمر في قولهم: (ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) استلزم عدة معان أصابت المنافقين بالخيبة والبهتان؛ ولم يكن مباشرا يخدم الغرض الرئيس الكائن في طلب المنافقين، ولم يتوافق مع ما رغبوا فيه من الاقتباس من النور؛ ومن ثم فإن العدول عن قاعدة المناسبة وعدم التمسك بمبدأ التعاون قد أفضى إلى هذه التأويلات والاستلزامات الحوارية.

(١) الحديد: ١٣،١٤.

(٢) الكشاف: ٤/٤٧٥، ٤٧٦.

ومن حوارات أهل الجنة والنار التي يتجلى فيها الاستلزام الحواري بالعدول عن قاعدة من قواعده قول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾[1]

فإذا تأملنا هذا النص القرآني نجد أنه يتضمن حوارا بين أصحاب اليمين/ الجنة وأصحاب النار يبدأ بسؤال أصحاب اليمين للمجرمين في النار بقولهم: ما سلككم في سقر؟ فيجيب هؤلاء المجرمون عن هذا السؤال بعدة إجابات أو يمكن القول بعدة أسباب، لكن كل سبب يصلح أن يكون إجابة كافية للرد على السؤال السابق، لماذا؟؛ لأن كل واحد منها يمثل خطيئة كبيرة موجبةً دخولَ النار:

- لم نك من المصلين.
- لم نك نطعم المسكين.
- كنا نخوض مع الخائضين.
- كنا نكذب بيوم الدين.

فنلحظ في ذلك عدولا واضحا عن قاعدة الكم، مما أدى إلى وجود الاستلزام الحواري؛ حيث كان يكفي أن يذكروا سببا واحدا أو أن يجملوا ذلك بأنهم لم يكونوا مؤمنين؛ ولكنهم فصّلوا القول "فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا: لِأَنَّا لَمْ نَكُنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ اشْتُهِرُوا بِأَنَّهُمْ أَهْلُ الصَّلَاةِ، وَبِأَنَّهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ، وَبِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَبِيَوْمِ الدِّينِ وَيُصَدِّقُونَ الرُّسُلَ"[2]، والعدول هنا ليس وليد عدم توفير كمية معقولة من المعلومات، بل إنه ناتج عن

(١) سورة المدثر: ٣٨ – ٤٧.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٩/ ٣٢٧.

تجاوز القدر المطلوب من المعلومات؛ لأن المتكلم يجب أن يكون إسهامه في الحوار بالقدر المطلوب، فلا يزيد ولا ينقص[1]؛ ولذلك يستلزم هذا العدول مقصدا آخر للمتكلم/ أصحاب النار، هو ندمهم وتحسرهم على التقصير في جميع ما ذكروا من تكاليفَ كان يجب عليهم القيام بها؛ فكأن هذا التفصيل اعتراف بالتفريط في كثير من الواجبات، وهو ما كان سببا في دخولهم النار واستحقاق العذاب، ويمكن استشفاف مقاصد أخرى للمتكلم كالاستعطاف والتسلي والاستئناس بالكلام مع أصحاب الجنة، والأمل في الخروج من النار بهذا الاعتراف والتندم على التفريط في أوامر الله- سبحانه- ونواهيه؛ فكل هذه مقاصد حوارية نتجت عن العدول عن قاعدة (الكم)؛ حيث لا يمكن أن يكون القصد مجرد إخبار أصحاب الجنة عن الأسباب التي أدت بهم إلى الزج في النار.

حوار أهل النار مع الله- سبحانه وتعالى:

أهل النار مُبَكَّتون ملومون؛ فإذا طلبوا من الله- تعالى- الرحمة لامهم وذمهم وذكّرهم بجرائمهم، فهم يحاولون التودد إليه والتأدب في الحوار معه- سبحانه- وَفقا لما جاء في بيان مبدأ التأدب؛ فيمدحون الله ويذمون أنفسهم ويعترفون بخطئهم أملا في الخروج من النار، وكأنهم نسوا أن الآخرة دار الجزاء والحساب؛ فلا تنفعهم رقة كلماتهم، ولا ندمهم على الذنب واعترافهم به، ولذلك نجد حوارهم مع الله- سبحانه وتعالى- يعدل عن قواعد مبدأ التعاون؛ لأنه يقوم على التودد من جانبهم والتبكيت واللوم من قبل الله- تبارك وتعالى.

ومن النماذج الحوارية التي عدل فيها عن قواعد هذا المبدأ قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾

(١) ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني، العياشي أدراوي: ٩٩.

قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ (١).

ففي قولهم: (ربنا غلبت علينا شقوتنا) عدول عن قاعدة المناسبة؛ فالجواب على غير ما جاء في سؤال الله لهم: (أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) فهذه إجابة غير مباشرة ولّدت استلزاما حواريا، حيث عُدل عن قاعدة الملاءمة/ المناسبة التي تقضي بأن يكون الكلام في صلب الموضوع، حيث كان التعبير المناسب هو إجابة أصحاب النار بـ(نعم)، ولكن الحوار خرج إلى الدعاء في قولهم: (رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ)، وهو ما أدى إلى وجود معنى مستلزم عن هذا الحوار، وهو التذلل لله- سبحانه وتعالى- وإظهار المسكنة بين يديه أملا في العفو وطمعا في المغفرة، "ويتم العدول عن قاعدة المناسبة إذا انزلق المخاطَب إلى مقاصدَ أخرى مخالفةٍ لتلك التي قصدها المتكلم، فلم يتناسب المخاطب في قوله بما هو مطلوب"(٢)، ومن ناحية أخرى نجد التزاما بقاعدة (التودد) المتفرعة عن مبدأ (التأدب) التي تقضي بإظهار الود للمخاطب، ويتمثل هذا التودد في عدة مظاهر:

(١) سورة المؤمنون: ١٠٣ – ١١٤.

(٢) ينظر: الاستلزام الحواري من خلال خطابات سيدنا إبراهيم عليه السلام دراسة تداولية، كوثر حمو: ٦٠، ماجستير، جامعة قاصدي مرباح – ورقلة- الجزائر ٢٠١٦/ ٢٠١٧م.

- إظهار الندم والاعتراف بالذنب في قولهم: (ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين).
- قولهم: (ربنا) في بداية كلامهم: (ربنا أخرجنا منها)، وإفادتها الإقرار بربوبية الله- تعالى- واشتمالها على ضمير المتكلم/ نا.
- تكرار كلمة (ربنا) في قولهم: (ربنا أخرجنا منها).
- وصف أنفسهم بالضلال في قولهم: (وكنا قوما ضالين)، وبالظلم في قولهم: (فإن عدنا فإنا ظالمون).
- استخدام أسلوب الشرط الذي يفيد أخذَهم العهدَ على أنفسهم.

وكل مظاهر التأدب في حوار أصحاب النار مع ربهم تدل على الرجاء والطمع في العفو والمغفرة والخروج من النار، كما تودوا إليه وفق مبدأ التأدب في قول الله-تعالى- على لسانهم: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴿٣٧﴾ ﴾[1] ، ويأتي الرد المبكت والموبخ لهم من الله- سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

وفي النموذج السابق يأتي الرد متضمنا شيئا من البسط والتفصيل ليعدل عن قاعدة الكم: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

فبتأمل هذا الجواب على أهل النار يتبين أن فيه تجاوزا للقدر المطلوب من المعلومات/ عدول عن قاعدة الكم؛ فقوله- تعالى: (اخسئوا فيها ولا تكلمون) هو إجابة طلبهم، وفيها ما يلزم من إفادة الرفض لهذا الطلب، لكن يأتي قدر آخر من

(١) سورة فاطر: آية ٣٧.

الكلام يستلزم معاني أخرى؛ ففي قوله- سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ تكمن- إضافة إلى التوبيخ- مقاصدُ مختلفةٌ؛ أهمها: مقارنتهم بالمؤمنين، والموازنة بين ما فعلوه في دنياهم بما فعله المؤمنون تأنيبا لهم وتأكيدا لاستحقاقهم العذاب بغفلتهم ونسيانهم يوم الحساب، والتذكير بسخريتهم من المؤمنين واستهزائهم بهم، وفيه تعريض بعدم إيمانهم؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ما سخروا من المؤمنين به، الوجلين من عقاب الله؛ فلما أقام الله عليهم الحجة وطرحهم في النار وجعل المؤمنين هم الفائزين بالجنة لم يستطيعوا إنكارا ولا اعتراضا.

الحوار بين الملائكة وأهل النار:

لم يكتف خزنة النار من الملائكة بتعذيب أهل النار في النار فحسب؛ بل إنهم يبادرونهم بالسؤال عن الرسل الذين جاءوهم، وأبلغوهم آيات ربهم، وكأنما يريدون أن يزيدوهم في العذاب عذابا، أو أن يبرهنوا لهم على أن عذابهم في النار هو العدل المطلق؛ لأنه نتيجة تكذيبهم وعنادهم.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[1]

فالملائكة يبادرون أهل النار بهذا السؤال التقريري: "أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ "، فالسؤال هنا تقريري؛ لأن

(١) سورة الزمر: ٧١ – ٧٢.

الملائكة يعلمون يقينا أن الله لا يعذب أحدا إلا إذا بلغته رسالته فكذب وعصى؛ فهو ليس على حقيقته؛ وقد جاءت همزة الاستفهام مع أداة النفي/ لم لتأكيد دلالة الإثبات في الجملة.

وفي جواب أصحاب النار على الملائكة يظهر الاستلزام الحواري في قولهم: "بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ"، حيث لا تُراعى قاعدة الكم التي تقضي بأن يكون الكلام على القدر المطلوب؛ والقدر المطلوب هنا هو قولهم: (بلى)، ولكنهم يزيدون فيقولون: ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين، ومثلها ما جاء في سورة الملك في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾[1] وهذه الزيادة في الكم تقتضي استلزاما حواريا، يستدعي التفتيش في قصدية المتكلم؛ لأن كلامه يستلزم معنى آخرَ غيرَ المعنى الصريح؛ وخاصة أن المعنى الصريح أو الظاهر معنى ثابت لا خلاف فيه، فكأنهم أرادوا المبادرة بالحكم على أنفسهم، وعدم ترك فرصة الكلام للملائكة؛ لعلمهم أنهم ليس بأيديهم شيء يفعلونه، وأنهم ينفذون أوامر الله فيهم فحسب، يقول الفخر الرازي: "تَقْدِيرُ الْكَلَامِ أَنَّهُ حَقَّتْ عَلَيْنَا كَلِمَةُ الْعَذَابِ، وَمَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ فكيف يمكنه الْخَلَاصُ مِنَ الْعَذَابِ"[2]، وبهذا المعنى يتبين أن غرضهم من هذا الكلام هو غلق باب الحوار مع خزنة النار، ولذلك كان رد الملائكة: ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين.

ولكنهم بعدما صاروا في جهنم وذاقوا العذاب في دركاتها تمنوا أن يقضي

(١) سورة الملك: ٨ – ١٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي: ٤٧٨/٢٧، ٤٧٩، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ.

الله عليهم فيموتوا، فنادوا خازن النار لعله يجيبهم: ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[1]

فبعد أن ذاقوا العذاب وقسوته رفعوا عقيرتهم مستغيثين: (يا مالك ليقض علينا ربك)، فينتج حوار بين أهل النار ومالك خازن النار يظهر فيه استلزام حواري في إجابة مالك- عليه السلام؛ حيث يوجد عدول عن قاعدة الكم؛ ففي قوله: "إنكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون" تجاوز للقدر المطلوب في الحوار يستلزم مقصدا آخر للمتكلم وهو تبكيتهم وتقريعهم وتبرير العذاب الواقع عليهم، وتوبيخهم على تكذيب الحق واتباع الباطل، هذا على تقدير أن جملة هذا الكلام كله من قول مالك، إذ يحتمل أن يكون من كلام الله لهم، قال القرطبي- رحمه الله: " يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ قَوْلِ مَالِكٍ لَهُمْ، أَيْ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ فِي النَّارِ لِأَنَّا جِئْنَاكُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْحَقِّ فَلَمْ تَقْبَلُوا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ لَهُمُ الْيَوْمَ، أَيْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْأَدِلَّةَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكُمُ الرُّسُلَ"[2].

ويُعدل عن قاعدة المناسبة أيضا في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾[3]، فأهل النار يُفاوضون في قضية رئيسة هي شغلهم الشاغل في هذا الوقت، وهي قضية الخلاص من العذاب أو تخفيفه؛ فيطلبون من خزنة جهنم دعاء ربهم بذلك، لعلمهم بمكانتهم عند الله- سبحانه وتعالى، ولكن هؤلاء الخزنة

(١) سورة الزخرف: ٧٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: تفسير القرطبي: ١١٨/١٦، تحقيق/ أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.

(٣) سورة غافر: ٤٩، ٥٠.

يقابلون الإنشاء بإنشاء على خلاف طبيعة الحوار، فيقابلون فعل الأمر: (ادعوا..) باستفهام: (أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ)، وبهذا لا تتناسب المشاركة الحوارية لخزنة جهنم مع طلب أهل النار؛ فيُعدل عن قاعدة المناسبة مرة أخرى، كأن الملائكة/ خزنة جهنم لا يقبلون لهم حوارا، ولا يجيبونهم بما يُسعفهم ويريح بالهم، فالمعنى المستلزم هنا هو رفض الحوار مع أهل النار وقمعهم بعدم مناقشة مطلبهم تعذيبا لهم، وقد زادوهم فوق العذاب عذابا بإقامة الحجة عليهم، وسؤالهم عما مضى في دنياهم من تكذيب الرسل الذين جاءوهم بالبينات، وهنا يجيب أهل النار بكلمة واحدة: (بلى) في التزام تام بقاعدة الكم، وفي ذلك إشارة واضحة إلى يأسهم وعجزهم عن الدفاع عن أنفسهم أمام حجة الملائكة الدامغة، وفيه أيضا ما يلمح إلى أنهم صاروا منهكي القوى محبطين لا يقدرون على الحجاج ورد الجواب.

حوار طائفة من أهل النار مع طائفة أخرى من أهلها:

في هذه الطائفة من الحوارات يتجلى بُعد آخرُ في علاقة أهل النار ببعضهم، وتتكشّف ملامحُ جديدةٌ من صور العذاب النفسي الذي ينتابهم، وتظهر بوضوح عداوة حقيقية بينهم، حيث يغلِب على حوارهم اللعن واللوم والعتاب والدعاء بالعذاب وإلقاء كل فريق التبعة على غيره.

وفيها يقع كثير من نماذج الاستلزام الحواري القائم على تجاوز قواعد مبدأ التعاون الذي عدَّه (جرايس) من أهم المبادئ لحل مشكلة سوء التفاهم الذي ينشأ بين الناس(١)، والمخاطب يحاول أن يصل إلى مراد المتكلم، فيدرك أن ثمة عدولا عن قاعدة من قواعد هذا المبدأ متى ما حدث ذلك؛ لأن المبادلة الكلامية تحتاج إلى يقظة الطرفين لإدراك مرامي الكلام ومعانيه الخفية.

ومن النماذج الدالة على وقوع الاستلزام الحواري والعدول عن إحدى قواعد

(١) ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني: ٩٩.

مبدأ التعاون في حوار طائفة من أهل النار مع طائفة أخرى من أهلها قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [1]، أي قالت الأخرى التابعة للأولى المتبوعة: "رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا..."، وهنا تتوجه الفرقة التابعة بالخطاب إليه- سبحانه وتعالى- بعد قوله: "ربنا هؤلاء أضلونا"، وكان القياس أن يقال: قالت أخراهم لأولاهم: أنتم أضللتمونا لكن جاء هذا القول، لأن الذين أضلوا غيرَهم أهون من أن يخاطبوا، ولأن الموقف كله في يد الله"[2]، وهو مثل أن نقول: (قال الولد لأخيه: يا أبي إن أخي ضربني)، وفي قوله سبحانه: "قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ" دلالة على احتدام الحجاج والمخاصمة، وفيه أيضا دلالة على سماع الأولى لشكوى الثانية، ثم يكون رد الطائفة المتأخرة/ المتبوعة بقولها: "فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ" وهنا لا يوجد كلام مباشر في الرد على الشكوى؛ حيث كان الأصل أن يجيبوا بالإنكار، أو بنفي امتلاكهم لسلطة التأثير فيهم وإضلالهم، ولكنهم أجابوا بما يدل على فرحهم بحكم الله فيهم حينما قال: "لكل ضعف ولكن لا تعلمون"، فأراحهم أن الله لم يفضلهم عليهم، وعبروا عن ذلك، وتناسوا الشكوى السابقة؛ فعَدَلوا بذلك عن قاعدة الملاءمة؛ لأنهم أخذوا الكلام في منحىً آخرَ غيرِ الذي بدأ فيه، ويستلزم عن ذلك تشفي المتبوعين من تابعيهم واستهزاؤهم بشكواهم، إذ إنها لم ترفع عنهم شيئا من العذاب؛ إذ العذاب للفريقين مضاعف؛ فكأنهم قالوا: "ما دمتم ستأخذون ضعف العذاب مثلنا فقد تساوت الرؤوس "فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ"، كأن المجرم نفسَه ساعةَ يلتقي

(١) سورة الأعراف: ٣٨ – ٣٩.

(٢) ينظر: تفسير الشعراوي – الخواطر، محمد متولي الشعراوي: ٧/ ٤١٣٣ مطابع أخبار اليوم (د. ت).

ويستقبل مجرماً مثله، يقول له: اشرب من العذاب نفسه.."[1]، وكأنما لا يزال على إجرامه بما يبديه من التشفي والشماتة بمن اتبعه.

وفي هذه الحوارات بين أهل الجنة والنار تكثر الخصومة والجدل، ولذلك يتم العدول عن قاعدة (الكيف) كثيرا بهدف التغلب على الخصم وإبطال حجته، فإذا كانت قاعدة الكيف تقوم على ضرورة أن تكون المشاركة الحوارية صادقة وحقيقية، وتندرج تحتها قاعدتان مفادهما:

- لا تقل ما تعتقد أنه غير صحيح.
- لا تقل ما ليس لك حجة أو دليل كاف على صدقه[2].

فإنه يتم العدول عنها كثيرا بإلقاء التهم والتبرؤ من الطرف الآخر والادعاء الكاذب ومن ذلك ما جاء في قول الله- تعالى:﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[3]، وتمثيل هذا الموقف الحواري كالآتي:

- الذين استضعفوا: لولا أنتم لكنا مؤمنين.
- الذين استكبروا: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم مجرمين.
- الذين استضعفوا: بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا.

---

(١) تفسير الشعراوي – الخواطر، محمد متولي الشعراوي: ٧/ ٤١٣٤.

(٢) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر محمود أحمد نحلة: ٣٤.

(٣) سورة سبأ: ٣١ – ٣٣.

وينتهي هذا المشهد في حضرة رب العزة- سبحانه وتعالى- فكلاهما موقوف أمامه، يحاول تبرئة ساحته من خطأ عظيم وهو الشرك بعدما عاينوا ربهم، فيُلقي المستضعفون التُّهَمَة والتبعة على المستكبرين بقولهم: (لولا أنتم لكنا مؤمنين)، فيجيبهم المستكبرون بقولهم: (أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم مجرمين)، وفي قول المستكبرين ابتعاد عن الصدق ومراوغة بتكذيب المستضعفين فيما واجهوهم به؛ لأن الحقيقة أنهم أضلوهم وصدوهم عن الهدى، ولكنهم يكذبون ظنا منهم أن في هذا الكذب فرصتَهم الأخيرة في النجاة، ويستلزم عن هذا الحوار الإنكار ونفي ما اتهموا به والمراوغة والهروب من الحقيقة وهي ارتكابهم جريمة مركَّبة وهي الإضلال لغيرهم والضلال في أنفسهم، فالاستفهام إنكاري، يقول الشيخ "الطاهر بن عاشور": "وَهَمْزَةُ الِاسْتِفْهَامِ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْإِنْكَارِ على قَول الْمُسْتَضْعَفِينَ تبرُّؤاً مِنْهُ، وَهَذَا الْإِنْكَارُ بُهْتَانٌ وَإِنْكَارٌ لِلْوَاقِعِ بَعَثَهُ فِيهِمْ خَوْفُ إِلْقَاءِ التَّبِعَةِ عَلَيْهِمْ وَفَرْطُ الْغَضَبِ وَالْحَسْرَةِ مِنِ انْتِقَاضِ أَتْبَاعِهِمْ عَلَيْهِمْ وَزَوَالِ حُرْمَتِهِمْ بَيْنَهُمْ فَلَمْ يَتَمَالَكُوا أَنْ لَا يُكَذِّبُوهُمْ وَيَذِيلُوا بِتَوْرِيطِهِمْ"[1]، والدليل الحاسم على أنهم كاذبون أن الله- تعالى- وصفهم في الآيات بالذين استكبروا، ووصف أتباعهم بالذين استضعفوا، فالقضية محسومة، ولكنها محاولة يائسة للإفلات من العذاب.

وفي الرد الأخير للذين استضعفوا نجد عدولا عن قاعدة (الكم) في قولهم: (بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا)، فإنهم لما يئسوا من جدالهم، وأدركوا أنهم معذبون معهم سواء أقروا بما فعلوا أم لا أخذوا يوردون الكلام على سبيل التهكم بهم، غير عابئين بإنكارهم؛ حيث إن الإجابة على سؤالهم: (أنحن صددناكم عن الهدى؟) يمكن إيجازها في كلمة واحدة أو كلمات قلائل، ولكنهم سلكوا مسلكا آخر يتجاوز القدر المطلوب من الكلام مما

(١) التحرير والتنوير: ٢٠٦/٢٢.

يستلزم خروج الكلام على سبيل التهكم الذي يفيد التأكيد؛ لأنهم أضافوا المكر إلى الليل والنهار لإحاطتهما بمن فيهما، وتلبسه بالمكر، أو على معنى: بل مكركم بالليل والنهار هو الذي صدنا..، "أي بل صدَّنا مكرُكم بنا باللَّيلِ والنَّهارِ فحُذف المضافُ إليه وأقيم مقامَه الظَّرفُ اتِّساعاً أو جُعل ليلُهم ونهارُهم ماكريْنِ على الإسناد المجازي"(١).

ومن النماذج القرآنية في حوار أصحاب النار التي لا يلتزم الحوار فيها بقاعدة الكم قول الله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾(٢)

ففي هذه الآيات نجد عدولا عن قاعدة الكم في إجابة الرؤساء للأتباع؛ فإنهم لما قال لهم الأتباع: "إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين"، أجابوهم بقولهم: ﴿ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾، فالأتباع يسألونهم مستنكرين لحالهم بعدما وجدوهم معهم في النار، فقالوا لهم: إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين "أَيْ مِنْ قِبَلِ الدِّينِ فَتُضِلُّونَنَا عَنْهُ وَتُرُونَنَا أَنَّ الدِّينَ مَا تُضِلُّونَنَا بِهِ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: عَنِ الصِّرَاطِ الْحَقِّ، وَالْيَمِينُ عِبَارَةٌ عَنِ الدِّينِ وَالْحَقِّ"(٣)، فكان يمكن أن يجابوا بواحدة من الآيات الثلاث التي جاءت في كلام الرؤساء ردا عليهم، ولكنهم- أي الرؤساء-

(١) تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ١٣٤/٧، دار إحياء التراث العربي – بيروت (د.ت).
(٢) الصافات: ٢٧ – ٣١.
(٣) معالم التنزيل للبغوي: ٣٠/٤، تحقيق/ عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

ينتهكون قاعدة الكم ويجيبونهم بكلام كثير فوق المطلوب، مما يستلزم معنى حواريا آخر، وهو الإمعان في الهرب والتبرؤ من المتبوعين ظنا منهم أن في ذلك نجاة لهم أو تخفيفا للعذاب، لجهلهم بالقاعدة القرآنية التي تقول: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

وفي موضع آخر يأتي الحوار موافقا تماما لهذه القاعدة القائلة بضرورة أن يكون الإسهام في الحوار بالقدر المطلوب من المعلومات، وعدم قول شيء يتجاوز هذا القدر، وهذا في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾(٢)، فالرد بقولهم: "إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد" فيه التزام بمبدأ التعاون وقاعدة الكم، دون زيادة أو نقصان.

والفارق بين هذا النموذج وسابقه أن الأول- كما يتضح من سياق الآيات- حوار بين أصحاب النار قبل ولوج النار، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٣)، فالحديث هنا عن الوقوف للحساب في أرض المحشر قبل دخول النار، أما النموذج الآخر من سورة غافر ففيه تصريح بأن حوارهم إنما كان في النار: "وإذ يتحاجون في النار"، فليس ما يدعو إلى الجدال، ومدافعة الخصم والتبرؤ من إضلاله؛ فكأن النار بوجودهم فيها صارت بينة على ضلال كلا الفريقين لا مجال فيها لادعاء الغلبة على الخصم وإلقاء التبعة على الآخر، كما أنها أكلتهم وأذهبت جَلَدهم وأخذت ألبابهم فلا قوةَ لهم على حِجاجٍ فيها.

---

(١) سورة النحل: آية ٢٥.

(٢) سورة غافر: الآيتان: ٤٧ و٤٨.

(٣) سورة الصافات: الآيات: ٢٢ و٢٣ و٢٤.

المبحث الثالث: دراسة إحصائية:

في هذا المبحث أقدم كشافا لما تمت دراسته من نماذج نستجلي من خلاله إحصاء ما جاء في حوار أهل الجنة والنار من استلزام حواري أو التزام حواري، أي ما جاء من حوارات يخرج في ظاهره عن مبدأ التعاون، وما جاء ملتزما بقواعد هذا المبدأ الأربع: (الكم- الكيف- المناسبة- الأسلوب)، وما جاء كذلك وَفق مبدأ التأدب في الحوار، وبعد هذا الكشف سأقوم بدراسة هذه النتائج:

م	النموذج القرآني	القائل وموضع الشاهد	المبدأ والقاعدة	المعنى المباشر	المعنى المستلزم
حوار أهل الجنة مع أهل النار:					
١	وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾	أهل الجنة/ نداؤهم على أهل النار.	مبدأ التعاون- عدول عن قاعدة الكم.	مجرد الإخبار والاستفهام.	تبكيت أهل النار والشماتة بحالهم، والاغتباط بما هم فيه من نعيم.
٢	قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ	أهل الجنة/ جوابهم على أهل النار.	مبدأ التعاون- عدول عن قاعدة الكم.	رفض إعطائهم من الماء أو غيره من الرزق.	تذكير أهل النار بجرائمهم التي فعلوها في الدنيا، ولومهم على تفريطهم في حق أنفسهم.

	يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾				
٣	قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾	المؤمنون في الجنة/ الرد على المنافقين.	مبدأ التعاون- عدول عن قاعدة المناسبة.	طلب التماس النور في الدنيا	التهكم بالمنافقين وتقنيطهم من وجود النور وتخييب آمالهم فيه.
٤	قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾	المجرمون من أهل النار/ ردهم على أصحاب اليمين	مبدأ التعاون- عدول عن قاعدة الكم.	تعداد الواجبات التي لم يقوموا بها.	الندم والتحسر على التقصير فيما كلفوا به، والتسلي والاستئناس بالكلام مع أصحاب الجنة أملا في الخروج من النار.
حوار أهل النار مع الله- سبحانه وتعالى:					
٥	﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾	أهل النار/ ردهم على الله سبحانه وتعالى.	مبدأ التأدب- الالتزام بقاعدة التودد.	التذلل لله- سبحانه وتعالى- وإظهار المسكنة بين يديه أملا في العفو وطمعا في المغفرة.	ـــــ
٦	﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا	أهل النار/	مبدأ	التذلل لله-	

	رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾	دعاؤهم ونداؤهم لله تبارك وتعالى.	التأدب- الالتزام بقاعدة التودد.	سبحانه وتعالى- والاعتراف بضلالهم.	ـــــ
٧	قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾	الله (سبحانه وتعالى)/ جوابه- تعالى- على أهل النار.	مبدأ التعاون- عدول عن قاعدة الكم.	رفض طلب الكفار.	مقارنتهم بالمؤمنين، والموازنة بين ما فعلوه في دنياهم بما فعله المؤمنون تأنيبا لهم وتأكيدا لاستحقاقهم العذاب بغفلتهم ونسيانهم يوم الحساب، والتذكير بسخريتهم من المؤمنين واستهزائهم بهم.
الحوار بين الملائكة وأهل النار:					
٨	قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾	أهل النار/ ردهم على خزنة النار.	مبدأ التعاون- عدول	تأكيد إتيان الرسل إليهم	الحكم على أنفسهم وغلق باب الحوار مع خزنة النار.

			عن قاعدة الكم.		
٩	قَالَ إِنَّكُم مَّكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾	مالك خازن النار/ رده على أهل النار	مبدأ التعاون- عدول عن قاعدة الكم.	رفض طلبهم بالهلاك.	تبكيتهم وتقريعهم وتبرير العذاب الواقع عليهم، وتوبيخهم على تكذيب الحق واتباع الباطل.
١٠	قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾	الملائكة/ خزنة النار/ جوابهم على أهل النار	مبدأ التعاون- عدول عن قاعدة المناسبة.	رفض طلب أهل النار بتخفيف العذاب	رفض الحوار مع أهل النار وقمعهم بعدم مناقشة مطلبهم.
حوار طائفة من أهل النار مع طائفة أخرى من أهلها:					
١١	﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾	طائفة المتبوعين من أهل النار/ ردهم على التابعين لهم	مبدأ التعاون- عدول عن قاعدة المناسبة.	إنكار التفاضل في جهنم.	تشفي المتبوعين من تابعيهم واستهزاؤهم بشكواهم، إذ إنها لم ترفع عنهم شيئا من العذاب.
١٢	قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟	المستكبرون/	مبدأ	الاستفهام	الكذب ونفي التهمة

	لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾	ردا على تابعيهم.	التعاون- عدول عن قاعدة الكيف.	وإلقاء التهمة على تابعيهم	والمراوغة والهروب من الحقيقة وهي ارتكابهم جريمة مركَّبة وهي الإضلال لغيرهم والضلال في أنفسهم.
١٣	وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا	الضعفاء التابعون/ ردا على المستكبرين المتبوعين.	مبدأ التعاون- عدول عن قاعدة الكم.	اليأس والتوقف عن الجدال.	التهكم والتأكيد على إضلال المستكبرين لهم.
١٤	﴿ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾	الرؤساء/ ردا على التابعين	مبدأ التعاون- عدول عن قاعدة الكم.	اتهام تابعيهم بالضلال وجدالهم في اتهامهم بإضلالهم	الإمعان في الهرب والتبرؤ من المتبوعين ظنا منهم أن في ذلك نجاة لهم أو تخفيفا للعذاب.
١٥	قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾	الرؤساء/ ردا على التابعين.	مبدأ التعاون- الالتزام بقاعدة الكم.	الإقرار والاعتراف بالجرم بعدما عاينوا النار.	—

ومن خلال هذا الكشاف نجد عدولا عن قواعد مبدأ التعاون بصورة لافتة للنظر، ففي النماذج الحوارية التي كانت بين أهل الجنة وأهل النار اشتملت على عدول عن قاعدة الكم ثلاث مرات؛ منهما اثنتان في كلام أهل الجنة، وواحدة في كلام أهل النار، وعُدِل عن قاعدة المناسبة مرة واحدة في كلام أهل الجنة.

بينما اشتمل حوار أهل النار مع الله- سبحانه وتعالى- على التزام أهل النار بمبدأ التأدب وقاعدة التودد في موضعين، والعدول عن قاعدة الكم في موضع واحد جاء في خطاب الله- تعالى- لأهل النار.

واشتمل الحوار بين الملائكة وأهل النار على تجاوز قاعدة الكم في كلام أهل النار مرة، وفي كلام مالك/ خازن النار مرة أخرى، والعدول عن قاعدة المناسبة في خطاب الملائكة لأهل النار مرة واحدة.

أما حوار طائفة من أهل النار مع طائفة أخرى من أهلها فجاءت نماذجه مشتملة على عدول عن قاعدة الكم ثلاث مرات اثنتان منها في كلام الرؤساء للضعفاء، والثالثة في كلام الضعفاء للمستكبرين، وعدل عن قاعدة الكيف مرة في كلام المستكبرين للضعفاء، وقاعدة المناسبة مرة في كلام المتبوعين/ المستكبرين في حوارهم مع الضعفاء.

ونلحظ على هذه النتائج أن أكثر القواعد التي عُدل عنها في هذه النماذج هي قاعدة الكم؛ حيث حدث ذلك في تسعة نماذج من جملة خمس عشرة نموذج؛ أي ما يعادل ٦٠% من النماذج الواردة في البحث، وهو ما يؤكد أهمية الحوار، وخطورة مضامينه بالنسبة للمتكلم، وتم العدول عن قاعدة الكيف مرة واحدة في حوار أهل النار بعضهم بعضا أي ما يعادل نسبة ٦,٦%، وهو ما يبين أن المشاركة الحوارية صادقة وحقيقية، لم يقل أي طرف شيئا لا يعتقد أنه غير صحيح، ولم يقل ما ليس له حجة أو دليل كاف على صدقه غالبا؛ لأن الموقف يوم القيامة كاشف لا مجال فيه للمناورة والخداع.

وأما قاعدة المناسبة فقد عُدِل عنها ثلاث مرات؛ مرة في كلام أهل الجنة، ومرة في كلام الملائكة، ومرة في محاورة أهل النار بعضهم بعضا، وهو ما يعادل ٢٠% من النماذج المستخدمة، وذلك ناتج عن المراوغة وعدم الإجابة المباشرة ذات العلاقة المناسبة بكلام المخاطب، والالتفاف على مطلبه أو رجائه.

وأما القاعدة الرابعة من قواعد مبدأ التعاون وهي الأسلوب أو الطريقة أي

وضوح الأسلوب وتجنب الغموض، والتي تفسر في ضوء القواعد الفرعية الآتية: تجنب الإبهام في التعبير، وتجنب الحشو (كن موجِزا)، ورتب كلامك (كن منظما)[١]؛ فليس فيها عدول في جميع هذه النماذج؛ لأن الحوار قائم غالبا على الاستفهام والطلب والرجاء أو التهكم والاستهزاء، وكلها معان لا لبس فيها ولا غموض؛ كما أن القرآن الكريم منزه عن وقوع هذا الغموض أو الحشو في أي جزء من أجزائه حتى ولو كان حكاية عن أهل النار أو غيرهم.

أما مبدأ التأدب وهو مبدأ مكمل لمبدأ التعاون، فيظهر بوضوح الالتزام بقاعدة من أهم قواعده وهي قاعدة التودد التي تفرض إظهار الود للمخاطب[٢]، في موضعين من المواضع الحوارية في تذلل أهل النار لله- تبارك وتعالى- وإظهار الضعف والمسكنة بين يديه أملا في نظره إليهم ورحمته بهم؛ ولم يتوددوا للملائكة لأنهم علموا علم اليقين أن الذي بيده كل شيء هو الله ربهم ورب الملائكة؛ فقالوا للملائكة: "ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب.."، وقالوا لمالك: "ليقض علينا ربك"، فصفة الربوبية هنا تعلن عن تودهم لله- تبارك وتعالى- وليس للملائكة.

(١) ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني: ٩٩، ١٠٠.

(٢) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الدكتور طه عبد الرحمن: ٢٤٠، ٢٤١.

خاتمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد..

فقد تضمن هذا البحث دراسة تداولية في الآيات القرآنية التي اشتملت على حوارات أهل الجنة والنار في النص القرآني، وكانت الغاية من دراسة هذا الفرع من فروع التداولية وهو الاستلزام الحواري إتاحة البحث عن المعنى التواصلي الذي يحتاج إلى التنقيب والتفتيش في قصدية المتكلم؛ لكونه غير متاح في الألفاظ والكلمات وحدها، وإنما يحتاج إلى نظرة شمولية للسياق والإطار العام الذي تم فيه الحوار، وقد خلصت الدراسة إلى النتائج الآتية:

- عرف العلماء العرب التداولية وطبقوها في بحوثهم ودراساتهم واهتموا بكثير من المباحث التي تعد من صميم هذه النظرية، ولم يكن هذا الاهتمام خاصا بالنحويين والبلاغيين فحسب، بل اهتم بها كذلك الفقهاء وعلماء المنطق والفلاسفة.
- تعد التداولية من النظريات الحديثة التي تقبل التطبيق على النص القرآني، ولا ترفع عنه قداسته، شريطة أن يكون الباحث على وعي بأصول لغته وعلومها وقواعدها حذرا في استخدام المصطلحات الحديثة حتى يستبعد ما لا يليق استخدامه أو يمس قدسية النص الكريم.
- نجح (جرايس) في وضع قواعد الاستلزام الحواري، وإرساء مفاهيمها، وفتح مجال البحث فيها لغيره من الباحثين الذين استكملوا دراسة النظرية التداولية وبلورة أبعادها التواصلية في استخدام اللغة.
- العدول عن قواعد الاستلزام الحواري يعمل على توسيع المعنى، وثراء المضامين، وقوة الرسالة الموجهة للمخاطب، ويساعد الحوار الذي يقوم على هذا المغايرة في البحث عن المقاصد التواصلية التي يرمي إليها المتكلم من

خلال السياق.

- تمثلت ظاهرة الاستلزام الحواري التداولية بوضوح في خروج كثير من الأساليب الإنشائية في خطاب أهل الجنة والنار عن أغراضها الأصلية المفهومة من اللفظ المنطوق إلى معان وأغراض مستلزمة دل عليها السياق والمقام.
- كانت قاعدة الكم أكثر القواعد التي تم تجاوزها في النماذج التي تمت دراستها في خطاب أهل الجنة والنار، وهو ما يبين ضرورة الحوار وأهميته وخطورة القضية التي تتحدث فيها الأطراف المتحاورة، إذ هي قضية مصير أبدي وخلود في الجنة أو النار.
- استخدم أهل النار قاعدة التودد المنبثقة عن مبدأ التأدب، ولم يستخدموا قاعدة التعفف التي تفرض وجود مسافة بين المتكلم والمخاطب؛ والسبب في ذلك أنهم يعلمون أن المخاطب هو من بيده مصيرهم وتغيير حالهم، وأنه ربهم الذي آمنوا به وعلموا أنه أهل للدعاء مهما كثر وطال.
- لم يأت في نماذج هذا البحث عدول عن قاعدة الأسلوب أو الطريقة التي تحتم وضوح الأسلوب وتجنب الغموض، ومن ثم وجدنا التزاما بهذه القاعدة في جميع النماذج، لأن النص كلام الله- تبارك وتعالى- كما أن القضية التي هي موضوع الحوار قضية واضحة غاية الوضوح، ولا سيما أن الخطاب فيها خطاب تفاوضي فيه تذلل وخضوع، وليس خطابا حجاجيا سفسطائيا.

من خلال دراسة الاستلزام الحواري يمكن القول بضرورة التعاون اللغوي بين طرفي الحوار/ المرسل والمستقبل كما أوصى بذلك (جرايس)، وضرورة الالتزام بمبادئ الحوار وقواعده، وأن الاستلزام الحواري يُسهم في الكشف عن مقاصد المتكلم، ويبين المعاني الكامنة وراء الصورة اللفظية أو المنطوقة للكلام، كما يمكن القول بوجوب الاحتراز من التطبيق الصارم للنظرية واستخدام الألفاظ

التي لا تليق بقدسية التعبير القرآني، كالانتهاك والخرق وغيرهما من المصطلحات لا سيما في الدراسة التطبيقية، مراعاةً لأن القرآن الكريم كلام الله عز وجل حتى ولو كان على سبيل الحكاية عن الآخرين، فتلك الحكاية بالمعنى لا باللفظ. وعليه يمكن استخدام لفظ (العدول) أو (التجاوز) بدلا من (الانتهاك).

المصادر والمراجع

۞ القـرآن الكـريم۞

- الإحكـام فـي أصـول الأحكـام، أبـو الحسـن الآمـدي، تحقيـق/ عبـد الـرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت– دمشق– لبنان (د.ت).
- إسـتراتيجيات الخطـاب مقاربـة لغويـة تداوليـة، عبـد الهـادي ظـافر الشـهري، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد، بيروت ٢٠٠٤م.
- الاستلزام الحواري بين التراث والحداثة: صحيح ابن حبان أنموذجا، أسماء عبد الباقي محمد: ١٩٤، المصدر: مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع، العدد (٣٤) ٢٠١٩م.
- الاستلزام الحواري في التداول اللساني من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها: العياشي أدراوي، دار الأمان، المغرب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ١٤٣٢ هـ/ ٢٠١١م.
- الاستلزام الحواري في مسرح الحكيم: السلطان الحائر نموذجا، د/ السيد مبارك أبو زيد، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قناة السويس – كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد ٣٧ يونيو ٢٠٢١م، ص ٩٦.
- الاستلزام الحواري من خلال خطابات سيدنا إبراهيم عليه السلام دراسة تداولية، كوثر حمو، ماجستير، جامعة قاصدي مرباح – ورقلة– الجزائر ٢٠١٦/ ٢٠١٧م.
- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٢م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، أبو سعيد الشيرازي البيضاوي، تحقيق/ محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي–بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، تحقيق/ صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت ١٤٢٠هـ.
- بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، دار نوبار، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
- البيان والتبيين، الجاحظ، مكتبة الهلال، بيروت ١٤٢٣ هـ.
- تبسيط التداولية من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، بهاء الدين محمد يزيد، شمس للنشر والتوزيع- القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٠م.
- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤هـ.
- التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، د/ مسعود صحراوي، دار الطليعة- بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.
- التداولية في الفكر العربي، رشا مسلم يعقوب، انجيرس طعمة المالكي، مجلة الخليج العربي، المجلد (٤٩)، العدد الثاني ٢٠٢١م.
- تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي – بيروت (د.ت).
- تفسير الشعراوي – الخواطر، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم (د. ت).
- الجامع لأحكام القرآن: تفسير القرطبي، تحقيق/ أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.

- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، تحقيق/ د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية- بيروت (د.ت).
- ظاهرة الاستلزام الحواري في جواب الاستفهام في الحديث النبوي أنموذجا: دراسة نظرية تطبيقية ضمن المنهج التداولي، عصام محمد ناصر العصام: ٨٧، جمعية الثقافة من أجل التنمية، س ١٣، العدد (٦٠) ٢٠١٢م.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، أبو حامد، بهاء الدين السبكي، تحقيق/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر- بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٣م.
- في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلها في الدرس العربي القديم: د. خليفة بوجادي، الطبعة الأولى، بيت الحكمة، الجزائر، ٢٠٠٩م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله الزمخشري، دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ.
- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الدكتور طه عبد الرحمن، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٨م.
- المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية، نعمان بوقرة، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.
- معالم التنزيل للبغوي، تحقيق/ عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي -بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ.

References :

The Holy Quran

- al'iihkam fi 'usul al'ahkami, 'abu alhasan alamdi, tahqiqu/ eabd alrazaaq eafifi, almaktab al'iislamii, bayrut-dimashqa- lubnan (da.t).
- 'iistiratijiaat alkhitab muqarabat lughawiat tadawuliat, eabd alhadi zafir alshahri, altabeat al'uwlaa, dar alkitaab aljadid, bayrut 2004m.
- alaistilzam alhawari bayn alturath walhadathati: sahih aibn hibaan 'unmudhaja, 'asma' eabd albaqi muhamad: 194, almasdari: majalat alfunun wal'adab waeulum al'iinsaniaat waliajtimaei, aleadad (34) 2019m.
- alaistilzam alhawari fi altadawul allisanii min alwaey bialkhususiaat alnaweiat lilzaahirat 'iilaa wade alqawanin aldaabitat liha: aleayaashi 'adrawi, dar al'amani, almaghrbi, manshurat alaikhtilafi, aljazayir, 1432 ha/ 2011m.
- alaistilzam alhawari fi masrah alhakim: alsultan alhayir namudhaja, du/ alsayid mubarak 'abu zayd, majalat kuliyat aladab waleulum al'iinsaniati, jamieat qanaat alsuways - kuliyat aladab waleulum al'iinsaniati, aleadad 37 yuniu 2021m, s 96.
- alaistilzam alhawarii min khilal khitabat saydina 'iibrahim ealayh alsalam dirasat tadawuliyti, kawthar hamuw, majistir, jamieat qasidi mirbah - wariqlata- aljazayir 2016/ 2017m.
- afaq jadidat fi albahth allughawii almueasir mahmud 'ahmad nahlat, dar almaerifat aljamieiat 2002m.
- 'anwar altanzil wa'asrar altaawili, 'abu saeid alshiyrazi albaydawi, tahqiqu/ muhamad eabd alrahman almaraeashali, dar 'iihya' alturath alearbi-birut, altabeat al'uwlaa 1418hi.

- 'aysar altafasir likalam alealii alkabiri, 'abu bakr aljazayiri, maktabat aleulum walhikmi, almadinat almunawarati, almamlakat alearabiat alsueudiati, altabeat alkhamisat 1424hi-2003m.
- albahr almuhit fi altafsiri, 'abu hayaan al'andalsi, tahqiqu/ sidqi muhamad jamil, dar alfikr - bayrut 1420hi.
- blaghat alkhitab waeilm alnas, salah fidla, dar nubar, lubnan, bayrut, altabeat al'uwlaa 1996m.
- alibayan waltabyinu, aljahizi, maktabat alhilali, bayrut 1423 hu.
- tabsit altadawuliat min 'afeal allughat 'iilaa balaghat alkhitab alsiyasi, baha' aldiyn muhamad yizid, shams lilnashr waltawzie- alqahirat, altabeat al'uwlaa 2010m.
- altahrir waltanwiru, altaahir bin eashur, aldaar altuwnusiat lilnashr - tunis 1984hi.
- altadawuliat eind aleulama' alearabi: dirasat tadawuliat lizahira "al'afeal alkalamiati" fi alturath allisanii alearabii, da/ maseud sahrawi, dar altalieati- bayrut, altabeat al'uwlaa 2005m.
- altadawuliat fi alfikr alearabii, rasha muslim yaequba, anjirs tiemat almaliki, majalat alkhalij alearabii, almujalad (49), aleadad althaani 2021m.
- tafsir 'abi alsueud almusamaa 'iirshad aleaql alsalim 'iilaa mazaya alkitaab alkarim, dar 'iihya' alturath alearabii - bayrut (di.t).
- tafsir alshaerawi - alkhawatiru, muhamad mutwaliy alshaerawi, mutabie 'akhbar alyawm (d. t).
- aljamie li'ahkam alqurani: tafsir alqurtubi, tahqiqu/ 'ahmad albarduni wa'iibrahim 'atfish, dar alkutub almisriat - alqahiratu, altabeat althaaniat 1384h - 1964m.
- jawahir albalaghat fi almaeani walbayan walbadiei, almualafi: 'ahmad bin 'iibrahim bin mustafaa alhashimi, tahqiqu/ du. yusif alsamili, almaktabat aleasriatu- bayrut (da.t).

- zahirat alaistilzam alhawarii fi jawab alaistifham fi alhadith alnabawii 'unmudhaja: dirasat nazariat tatbiqiat dimn almanhaj altadawuli, eisam muhamad nasir aleisam: 87, jameiat althaqafat min 'ajl altanmiati, s 13, aleadad (60) 2012m.
- earus al'afrah fi sharh talkhis almiftahi, 'abu hamid, baha' aldiyn alsabki, tahqiqu/ eabd alhamid hindawi, almaktabat aleasriat liltibaeat walnushri- bayrut- lubnan, altabeati: al'uwlaa 1423 ha- 2003m.
- fi allisaniaat altadawuliat mae muhawalat tasiliha fi aldars alearabii alqadimi: di. khalifat bujadi, altabeat al'uwlaa, bayt alhikmat, aljazayar, 2009m.
- alkashaf ean haqayiq ghawamid altanzili, jar allah alzumakhshiri, dar alkutaab alearabii- bayrut, altabeat althaalithat 1407hi.
- allisan walmizan 'aw altakawthur aleaqli, alduktur tah eabd alrahman, altabeat al'uwlaa, almarkaz althaqafiu alearabia, bayrut 1998m.
- almustalahat al'asasiat fi lisaniaat alnasi watahlil alkhitab dirasat muejimiatun, nueman buqrat, jidaran lilkitab alealamii, eaman, altabeat al'uwlaa 2009m.
- maealim altanzil lilbghwi, tahqiqu/ eabd alrazaaq almahdi, dar 'iihya' alturath alearabii -birut, altabeat al'uwlaa 1420hi.
- muejam maqayis allughati, 'ahmad bin faris, tahqiqu/ eabd alsalam muhamad harun, dar alfikri, 1399h - 1979m.
- mafatih alghib, alfakhr alraazi, dar 'iihya' alturath alearabii - bayrut, altabeat althaalithat 1420h.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	ملخص	١٥٠٩
٢	مقدمة	١٥١١
٣	مدخل: مفهوم التداولية	١٥١٤
٤	التداولية في التراث العربي	١٥١٦
٥	المبحث الأول: الاستلزام الحواري: الماهية والخصائص.	١٥١٨
٦	مبدأ التعاون Principle of co-operation:	١٥١٩
٧	القاعدة الأولى: قاعدة الكم (Maxim of Quantity).	١٥٢٠
٨	القاعدة الثانية: قاعدة الكيف (Maxim of Quality).	١٥٢٠
٩	القاعدة الثالثة: قاعدة المناسبة أو الملاءمة (Maxim of Relevance).	١٥٢٠
١٠	القاعدة الرابعة: قاعدة الأسلوب أو الطريقة (Maxim of Manner).	١٥٢٠
١١	مبدأ التأدب:	١٥٢٣
١٢	قاعدة التعفف.	١٥٢٤
١٣	قاعدة التشكك (التخيير).	١٥٢٤
١٤	قاعدة التودد.	١٥٢٥
١٥	خصائص الاستلزام الحواري.	١٥٢٦
١٦	الاستلزام الحواري في التراث العربي.	١٥٢٧
١٧	المبحث الثاني: تجليات الاستلزام الحواري في خطاب أهل الجنة والنار:	١٥٢٩
١٨	حوار أهل الجنة مع أهل النار.	١٥٢٩
١٩	حوار أهل النار مع الله- سبحانه وتعالى.	١٥٣٦
٢٠	الحوار بين الملائكة وأهل النار.	١٥٣٩
٢١	حوار طائفة من أهل النار مع طائفة أخرى من أهلها.	١٥٤٢
٢٢	المبحث الثالث: دراسة إحصائية.	١٥٤٨
٢٣	خاتمة	١٥٥٥
٢٤	فهرس المصادر والمراجع	١٥٥٨
٢٥	فهرس الموضوعات	١٥٦٤